وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الدكتور يحي فارس –المدية–

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير

الرواية الجزائرية بين التاريخ و الخيال:

"حجر دم ورق أو رماد" لمايسة باي أنموذجا

من إعداد الطالبة: أمال زاويدي

الأستاذ المشرف: أ.د. جمال كديك

اللقب والاسم	الرتبة	الصفة	الجامعة
د. الصادق خشاب	أستاذ محاضر.أ	رئيسا	المدية
أ.د. جمال كديك	أستاذ التعليم العالي	مشرفا و مقررا	المدية
د. حميد علاوي	أستاذ محاضر.أ	عضوا مناقشا	الجزائر2
د. الرشيد كوراد	أستاذ محاضر.أ	عضوا مناقشا	البليدة

السنة الجامعية: 2014/2013

إهداء

إلى الوالدين العزيزين أطال اللّه عمرهما...

شكر و تقدير

إن الحمد و الشكر كلّه للّه تعالى على نعمه، بأن وفقنا لإتمام هذا البحث الذي لم يكن ليرى النور لولا توفيقه تعالى.

الشكر الجزيل للأستاذ المشرف؛ الأستاذ الدكتور: كديك جمال. الذي تحمل الإشراف على البحث و متابعته حتى بلغ نهايته رغم اهتماماته الكثيرة.

المقدمة

كانت بداية الأدب الجزائري الحديث في العشرينات و ذلك بفضل الأعمال الفكرية و المقالات الصحفية التي دعمت حركة الإصلاح للشيخ" ابن باديس "و "رضا حوحو". خمسينيات القرن الماضي شهدت تأسيس المدرسة الأدبية الجزائرية الناطقة باللغة الفرنسية (L'école d'Alger) حيث كان "Albert Camus" هو مؤسسها، و كان "Roy"و"Roblès" من أهم ممثليها و في هذه الفترة ظهر الأدباء ذوو الأصول الجزائرية الذين قدموا للأدب الجزائري العديد من الأعمال المهمة من بينهم " Mouloud Feraoun"،"Mohamed Dib" ، " Mouloud Mammeri " بعدها جاءت ثورة تحرير الوطن الذي ظهرت معها أقلام موهوبة لخدمة أدب المقاومة و الكفاح مثل " Kateb Yacine"،" مالك حداد"،" أسيا جبار "و هذا ما أثرى الأدب الجزائري .

في الجزائر و نتيجة للاحتلال الفرنسي ركزت الرواية الجزائرية على الظواهر الاجتماعية و التاريخية و الاقتصادية و النفسية للشعب الجزائري .ولطالما كان الأدب الجزائري الناطق باللغة الفرنسية أدب التحدي، أدب حب للوطن الجزائر، و هو موجود لأكثر من قرن وقد تجلى هذا الحضور في جميع صور الأدب (الرواية، الشعر، المسرح والقصص)، كما اتسم دائما بالطابع التاريخي . و مع المقاومة المسلحة في أربعة وخمسون تسعمائة و ألف أصبح سلاحا ثوريا في وجه ضد الاستعمار الفرنسي، وحتى يحضى كلامهم بصدى في جميع أنحاء العالم فإن الأدباء مثلوا الشعب الجزائري بلسان ناطق بلغة العدو ، فالغاية أن يكونوا شاهدين على ما يحدث في مجتمعهم الجزائري، فكما يقول "محمد ديب":

« Une œuvre n'a de valeur que dans la mesure où elle est enracinée, où elle puise sa sève dans le pays auquel on appartient »[1].

[1] M.DIB, cité par Jean Dejeux, in *littérature algérienne contemporaine*, PUF, colle que sais-je? N° 1604, Paris, 1975.

"إن العمل الفني لا يملك قيمة، إلاّ إذا كان له جذور؛ أي أنه يستمد نسغه من الوطن الذي ينتمي إليه." ترجمة شخصية.

بذلك فالاستعمار و الثورة هما عنصران تركزت عليهما الأعمال الأدبية قبل الاستقلال، حيث كان المضمون خاص جدا؛ فالأدب الجزائري الناطق باللغة الفرنسية هو أدب معاصر، حديث يتركز و يتمحور حول التاريخ و أصبح إذا مرجعا له تاريخيا ووثيقة لفهم المجتمع الذي يعيش تحت وطأة و استبداد الاستعمار في الجزائر.

« Les romanciers algériens d'expression Française offrent aux lecteurs un véritable tableau des différents aspects, socio-économiques et culturels de l'Algérie pendant la période coloniale »[2].

كما يرى " مصطفى لشرف " أن الرواية الجزائرية الناطقة باللغة الفرنسية نشأت تحت تأثير عاملين أساسيين:« الانتقائية و الواجب » و ذلك لأن العوامل التاريخية لم تكن العوامل الوحيدة التي أدت إلى نشأته.

« Le romans algérien d'expression française relevait à ses débuts d'un besoin de création plus que d'un besoin de combat et d'illustration politique »[3].

في البداية كان هذا الأدب محصورا لحداثة نشأته و لكن مع مرور الزمن أصبح له جمهوره الخاص الذي يتزايد عدده مع مرور الزمن إلى أن أصبح أدبا عالميا له جمهوره في مختلف بلدان العالم .

---

[2] F.YAHYAOUI, *roman et société coloniale, dans l'Algérie de l'entre-deux-guerres*, Ed ENAG-GAM, Alger-Bruxelles.

"الروائيون الجزائريون الناطقون باللغة الفرنسية يقدمون للقرّاء لوحة عن النماذج الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية للجزائر أثناء فترة الاستعمار." ترجمة شخصية.

[3] M.lacheref, « *L'avenir de la culture algérienne dans les temps modernes* » N° 209 Octobre 1963, cité par J.Dejeux, *culture algérienne dans les textes* Ed. O.P.U. Alger SNDL.

"الرواية الجزائرية الناطقة باللغة الفرنسية ترجع بداياتها إلى حاجة الإبداع أكثر منها للكفاح و الظهور السياسي." ترجمة شخصية.

و يرى كاتب ياسين أن اللغة الفرنسية هي غنيمة حرب « Butin de guerre » فالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يتميز باستعمال لغة المستعمر، و لكنه يختلف عن الأدب الفرنسي و هذا ما يضمن خصوصيته و جماليته .

أما الأدب النِسوي فيتضمن أعمالا مختلفة حيث أن الكاتبات أردنّ أن يتحدثن وأن يُذكرن فيشعرن بوجودهن وبصدى كلماتهن، فهن يمثلن الذاكرة الحية لما يحدث في المجتمع الجزائري.

الأديبة الجزائرية "مايسة باي" في روايتها « Pierre Sang Papier ou Cendre » أي "حجر دم ورق أو رماد "، تتخذ تاريخ الجزائر موضوعا لها حيث تنقل لنا أوضاع الجزائر من بداية الاستعمار الفرنسي إلى السنوات الأولى للاستقلال.

تحتوي الرواية على خمسة و عشرون فصلا أين نجد شخصية" مدام لافرانس "وشخصية الطفل الذي يبقى طفلا طوال 132 سنة .فهذا النص الأدبي ممزوج بغضب شديد يتخفى وراء قناع شخصية الطفل، ينقل لنا حقيقة أحداث تاريخية جرت على امتداد 132 سنة تحت وطأة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

سنحاول في بحثنا هذا دراسة العلاقة المتشكلة بين ما هو تاريخي و ما هو خيالي، ومعرفة إن كانت المقاطع المرجعية تفقد مرجعيتها حين نقوم بدمجها في المجال الخيالي؟ أي بطريقة أخرى، هل نستطيع القول بأن الشخصيات التاريخية المدمجة في النص الخيالي هي مختلفة عن الشخصيات التاريخية المرجعية؟ و كيف تم دمج الشخصية التاريخية مع الشخصيات الخيالية؟ و أيضا مسألة الحقيقة في الرواية هي مسألة هامة بما أن الرواية تتأرجح مابين عرض المرجع التاريخي و الروائي و هذا ما قد يؤدي للانحراف عن ما هو حقيقي، فما هي إذن الحيل الفنية التي لجأت إليها الكاتبة كي

توائم بين الرواية و التاريخ؟ و هل تخون الرواية التاريخية حقيقة من ذهبوا عنا؟ أم أنها تاريخ زائف موجه؟ و هل ثمة مسوغ لتمازج سرديتين إحداهما وثائقية و الأخرى جمالية؟

إذ يمكن أن تكون الكاتبة في روايتها قد غلّبت الطابع التاريخي على الخيالي، بما أنها قد شهدت السنوات الأخيرة من الاستعمار الفرنسي للجزائر وعاشت الاستقلال، فقامت بدمج شخوص تاريخية و مقاطع مرجعية ذكرت من خلالها الأحداث التاريخية بدقة كما حدثت .أو ربما لكونها روائية، فقد حبّذت تغليب العنصر الخيالي و ذلك بهدف إضفاء طابع جمالي على روايتها؛ حيث أنها لم تستعن بالشخوص التاريخية، و قامت بخلق شخصيات خيالية دمجتها في إطار زماني اختارته هي .و يمكن أيضا أن تكون قد احترمت الإطار التاريخي للأحداث فتكون بذلك وفيّة للتاريخ غير أن بطلها متخيل وكذلك حبكتها .ومن هنا قد نجد أن الساردة صوّرت مآسي الشعب الجزائري، مع تسليط الضوء على وحشية السياسة الاستعمارية من خلال نقل إيديولوجيتها التي تمثل في نفس الوقت إيديولوجية الشعب الجزائري؛ بما أن الجميع قد عانى الكثير جرّاء الاستعمار الفرنسي الذي لم يستثن أحدا.

و من أجل معرفة منهجها و أسلوبها التي اتبعته قمنا بتقسيم بحثنا إلى ثلاثة فصول مختلفة.

حيث نتناول في الفصل الأول: " الرواية التاريخية". و هو يتكون من ستة مباحث. المبحث الأول يهتم بالتطور التاريخي في المغرب العربي و الجزائر. أمّا المبحث الثاني فنتناول فيه مفهوم الرواية التاريخية. المبحث الثالث؛ بعنوان تحديد الشخصية الروائية عند "Philippe Hamon" أين سنتطرق لنظريته حول الشخصيات. المبحث الرابع: الشخوص التاريخية. أين سندرس الشخصيات التاريخية المذكورة في الرواية و ذلك وفق ما سنجده حسب نظرية "فيليب هامون". أمّا المبحث الخامس: الرواية التاريخية و كتابة

التاريخ سندرس فيه؛ كتابة التاريخ حسب "Veyne "، حسب "De Certeau" و حسب "Ricoeur" .و أخيرا المبحث السادس أين سنقوم فيه بالموازنة بين الروائي و التاريخي.

أمّا في الفصل الثاني: "مباحث الصورة". تطرقنا فيه إلى: دراسة الصورة الأدبية (الصورولوجيا) ، مفهوم علم الصورة و علم الصورة في الإبداع الروائي ؛ أي سندرس فيه الصورة و التمثيلات في الرواية، رمزية الطفل و رمزية "مدام لافرانس".

و في الفصل الثالث و الأخير المُعنون بمباحث الإيديولوجيا، نجد أربعة مباحث . المبحث الأول يتعلق بمفهوم الإيديولوجيا، المبحث الثاني بعلاقة الأدب بالإيديولوجيا، المبحث الثالث بعلاقة الرواية بالإيديولوجيا و المبحث الرابع و الأخير بتحليل الرواية إيديولوجيا.

الفصل الأول:

الرواية التاريخية

المبحث الأول: التطور التاريخي في المغرب العربي و الجزائر

في المغرب العربي، تأخر ظهور الرواية بشكل عام، وعُرف عنها بعد أن ظهرت، اهتمامها بالكاتب كبطل يميزها فنيا وفكريا .غير أن الاستجابة للشرط الرافض للاحتلالين الفرنسي و الاسباني أعاد الكتاب المغاربة إلى تاريخهم وتراثهم في محاولة لحماية الهوية المغاربية من عناصر التغريب التي جاء بها الاستعمار. فكان البحث في هذا التاريخ عن الفترات المنيرة والمراحل الزاهية سواء تعلقت بالتاريخ القديم للمغرب أو بالتاريخ العربي الإسلامي أو الحديث، وترجمتها إلى أعمال أدبية مختلفة تثير اهتمام الناس والتفافهم حول قضاياهم الوطنية بإيقاظ وعيهم كمسرحية (طارق بن زياد) للـ"هاشمي الفيلالي"، ومسرحية (ليالي إشبيلية) لـ"عبد الكبير العلمي"، ومسرحية (أمير المسلمين) لـ"عبد الله بن شقرون".[4]

وفي السياق نفسه، قام الباحث "عبد العزيز بن عبد الله"[5]. بنفض الغبار عن بعض الحوادث التاريخية الخاصة ببلاد المغرب ناسجا حولها قصصا مختلفة من أشهرها: (الجاسوسة المقنعة) التي تدور حوادثها في عهد المعتمد بن عباد، و(الرومية الشقراء) التي تدور أحداث أثناء فتح عقبة بن نافع للمغرب، و(غادة أصيلا) التي تدور حوادثها في عهد الأمراء السعديين. وقد كان همّ الأدباء في هذه الكتابات الهروب إلى التاريخ الذي أضحى مثلا يحتذى به أمام ما يواجه المغرب من احتلال وضرورة التحرك ضده. واستمرت هذه الرؤية إلى أن جاء الاستقلال، حيث تجاوزت الرواية التاريخية بانتهاء ظروف وجودها، يقول محمد عزام في معرض حديثه عن الرواية التاريخية في المغرب العربي : "وبعد الاستقلال أُهمِل شأن الرواية التاريخية، لانقضاء ظروفها ومناسباتها، وتجاوزت فكريا وفنيا لأن التاريخ مادة جاهزة تسهل على الكاتب كثيرا من مهمته فيؤثر

---

[4]– أنظر محمد عزام، وعي العالم الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق/1990، ص42.

[5]– المرجع نفسه، ص43.

اللجوء إليها، بالإضافة إلى أن المرحلة كانت تتطلبها. ولكن تغير الوضع، بعد الاستقلال، لم يبق ثمة مسوغ للاستمرار في إنتاج مثل هذه الرؤية."[6]

ن الناحية التاريخية ، هذا القول مفيد، لكنه يحوي في الوقت ذاته وهما كبيرا فيه الكثير من التساهل في الحكم على الرواية التاريخية، من حيث أن اعتمادها على التاريخ يجعل مهمتها سهلة وبسيطة ولا تتطلب جهدا وحيلة. قد تكون الفكرة صحيحة إذا كان ما تقوم به الرواية لا يتعدى كونه استنساخا لمجريات التاريخ، إلا أن الأمر أكثر تعقيدا من ذلك حتى في الحالات البسيطة التي تستقدم فيها الرواية التاريخ، خاصة وأنها في ذلك تعتمد مادة خارجة عن سيطرتها، عليها أولا أن تبني عليها مشروعا روائيا و أن تخضعها لنظامها الخاص دون أن تبطل مفعولها التاريخي تماما.

ومن ذلك العهد الذي كان يرسم التاريخ، إلى اليوم، مرت الرواية التاريخية العربية بتطورات و مراحل لا شك و أنها غيرت من طريقة انتظامها و بنائها شأنها في ذلك شأن الرواية العربية بكاملها. إذ يبرز اليوم جيل آخر من الكتاب يملك وجهات نظر وكذلك طرقا مختلفة في التعامل مع التاريخ وإن لم يخرجوا عن إطار كتابته متابعين في ذلك صفة الرواية التاريخية ببصمة جديدة في كل مرة تجعلنا نقف وقفة تأملية أمام هذا النوع الروائي حتى على مستوى التسمية. فعن أي تاريخ نتحدث؟ ألا تعتبر الروايات الفلسطينية التي ترصد مراحل القضية روايات تاريخية، ألا تعتبر كتابات الثورة الجزائرية كتابة تاريخية؟

لا نملك القدرة على الإجابة، إلا أننا نملك الحق في التحديد، فالمقصود بالرواية التاريخية بالنسبة لهذا البحث هو تلك التي استعاد فيها أمين معلوف على سبيل المثال، في نصه "ليون الإفريقي" رحلة الحسن الوزان في"وصف إفريقيا"، وما كتبه "جمال الغيطاني" في "الزيني بركات" معتمدا على نص آخر تاريخي و الخاص بابن إياس. حيث أن مثل هذه

[6]– المرجع السابق، ص 44.

النصوص نصوص تاريخية لأنها تؤرخ لمراحل مهمة وتسرد وقائع من جهة ولأنها ترسمت في التاريخ وأوضحت بمكانتها تلك جزءا منه يمكن استعادته والاشتغال عليه روائيا من جهة أخرى.

وفي الفَلَك نفسه تقريبا، يدور عمل "بن سالم حميش" في روايته "العلامة"، التي استعاد فيها تاريخ ابن خلدون العام الذي يتموقع فيه ويعتبر أحد عناصره، الخاص الذي دوَّنهُ وتركه و أسس به لعلم بأكمله "إن ابن خلدون يمثل هذا المنعطف بالذات، حيث أنه أصل في ذلك الاهتمام الجاد بظواهر التغيرات و"ريح الحضارة" و"خبر الواقعات"، ففتح طريق اكتساب العقل التحليلي، القادر على فهم انبناء التاريخ وتشكل عقده ومحطاته. وبكلمة جامعة، إنه من استطاع الدفع بالوعي العربي- الإسلامي إلى تمثل جدلية تاريخية فوق مقاصده الذاتية، العفوية المباشرة، أي في حقل النظر وإعمال الفكر النقدي."[7]وبذلك يكون "حميش" من بين الكتاب المغاربة الذين اهتموا بالرواية التاريخية في جل أعماله الأدبية، و التي يمنح من خلالها فكرة أخرى عن الكتابة المغاربية، الروائية عموما، والروائية التاريخية على وجه الخصوص.

لقد كان للاحتلال الفرنسي على الجزائر، أثر بالغ على المجتمع الجزائري بنواحيه المختلفة؛ السياسية و الاقتصادية و الثقافية، و هكذا كان الأدب الجزائري و الرواية على وجه الخصوص رهينة هذا الواقع الذي سيطر عليه الاستعمار طويلا. فكان الروائيون الجزائريون شهودا على أوضاع مجتمعهم؛ متفاعلين مع ما يجري حولهم.

شكّلت الثورة نقطة تحول أساسية في مسير التجربة الروائية الجزائرية، حيث أصبح الحديث عن الثورة و النّهل منها ضرورة في الكتابة الروائية، سواء بسرد بطولاتها أم بتشكيلها. و وجد الروائيون الجزائريون أنفسهم في مواجهة لغة الجانب "الأقوى"، فكانت

[7]- سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، ط1: 1998، ص17.

اللغة الفرنسية سبيلهم لمحادثة هذا الطرف في ظل الظروف التي فرضها هذا المستعمر على اللغة العربية بصفتها اللغة الأم.

يجدر بنا الإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى الازدواجية اللغوية في الجزائر، و تمثلت في "عدة عوامل من بينها التاريخية و الثقافية و الاجتماعية خلفتها بالدرجة الأولى المرحلة الإستدمارية التي حاولت طمس الشخصية الوطنية عن طريق محاربة اللغة العربية."[8]

و على ضوء ما سبق، نجد عبد الله الركيبي يقف الموقف نفسه من هذا الأدب، المكتوب باللغة الفرنسية، مصرحا: " وجملة القول فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، قد أوجد لظروف و أسباب في مرحلة معينة، و هو إن كتب بلغة أجنبية، فإنه عبر عن مضمون جزائري و واقع وطني الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا "[9].

ظهرت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية وبالتحديد في سنة 1950 على أيدي رواد كبار بلغوا درجة عالية في مضمار الفن الروائي.

وفي هذا السياق يقول أحد الباحثين مشيرا إلى هذه الكوكبة من الروائيين الذين لهم شهرة واسعة في هذا المجال، "برزت في الأدب الفرنسي جماعة من الكتاب الذين يتميزون بالموهبة الأصلية والعبقرية الفذة في الإنتاج الأدبي والمسرحي، والذوق الحسن ، والمقدرة على الرواية والكتابة ، والعمق في التعبير والتجاوب العميق مع الأرض التي ولدوا فيها والمجتمع الذي نشأوا فيه ..."."[10] هذه الجماعة ونعني بها "كاتب ياسين" ، و"مولود فرعون" ، و "إبن عمروش" ، و"مولود معمري"، و"محمد ديب" ، و"مالك حداد" ، و"آيت جعفر" ، برزت على المسرح الوطني.

---

[8] بن نعمان، أحمد، التعريب بين المبدأ و التطبيق، الجزائر، ش.و.ن.ت، ط.1، 1981. ص9.

[9] عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، ص249.

[10] محمد البصير، الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة 1970- 1982، ص 25.

وقد عالج الكتّاب الجزائريين القضايا والأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية والثقافية والسياسية في البلاد قبل الثورة وأثنائها وبعد الاستقلال ، فألّف "مولود فرعون" الذي كتب "ابن الفقير" Le fils du pauvre سنة 1953 و "الأرض و الدم" La terre et le sang سنة 1957، الذي جمع في ذاته عالمين و ثقافتين و صوّر المشكلات و المتناقضات التي زخرت بها مرحلة يقظة الوعي الوطني للجزائريين في تلك المرحلة المرتبطة بالكفاح من أجل الاستقلال. كاتب آخر كانت له بصمة واضحة في أدب المقاومة، إنه "محمد ديب"؛ الذي يقترن اسمه بالثلاثية: "الدار الكبيرة" La grande maison1952، "الحريق" L'incendie 1954و "النول" Le métier à tisser 1957. و ألّف «كاتب ياسين" رواية " نجمة " عام 1956، ونشر «مالك حداد" أربع روايات بدأها "بالبصمة الأخيرة " عام 1958، و "سأهديك غزالة" عام 1959 و" التلميذ والدرس" عام 1960، " رصيف الأزهار لا يجيب" عام 1961. أما "أسيا جبار" فألّفت "العطش" عام 1957، "الجازعون" عام 1958 ، ثم ألفت فيما بعد "أبناء العالم الجديد" 1962 ، وأخيرا وليس آخرا جاء دور "رشيد بوجدرة" بعد الاستقلال فألّف عدة روايات من بينها "الطلاق" عام 1969 ، و"الحلزون العنيد " عام 1977 ، وألف "عام وعام من الحنين" عام 1981 ،وهناك روائيون آخرون من الشباب كتبوا روايات بالفرنسية لا يتسع المقام لذكرهم.

عالجت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية قضايا الشعب وهمومه المختلفة من فقر وجهل وتشرد و بؤس وحرمان ، كما وصفت الهجرة والبطالة والظلم والقهر الذي كان يعانيه الشعب الجزائري، حيث اتخذ كتاب الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية موقفا حازما مع الشعب الجزائري كله، فصوروا في رواياتهم آلامه وآماله، وحالة تشرده وضياعه، أصدق تصوير وأدق تفصيل كان هذا قبل ثورة نوفمبر 1954.

أما أثناء الثورة فقد سجل هؤلاء الروائيون صيحات الرفض والتمرد وتحول هذا الرفض والتمرد إلى سخط وغضب و استنكار، فأعلن الشعب حينئذ العنف الثوري ضد الاستعمار، ولم يكتف الأدباء الجزائريون بالتحدي السياسي بل شنوا حربا على العدو بالكلمة المقاتلة والأدب الملزم ودفعوا أرواحهم الطاهرة ودماءهم الزكية في سبيل تحرير الوطن وتطهيره من أرجاس الغاضبين، فاستشهد من كتّاب الرواية "أحمد رضا حوحو"، و"مولود فرعون".

اهتمت الرواية الجزائرية بموضوع المقاومة و النضال، و أصبحت أحداث ووقائع حرب التحرير تشكل المحور الرئيسي في أغلب الأعمال، كما اهتم الروائيون بالآثار النفسية و الاجتماعية التي خلفتها هذه الحرب على الشعب الجزائري. و من بين الروايات الحديثة المكتوبة باللغة الفرنسية و التي تأخذ التاريخ الجزائري كمادة لها، نذكر: L'Amour, la fantasia لـ"آسيا جبار"؛ Les figuiers de barbarie لـ "رشيد بوجدرة"، Pierre sang papier ou cendre لـ "مايسة باي" و غيرها. و في بحثنا هذا سنقوم بدراسة المستوى التاريخي في هذه الرواية الأخيرة: "حجر دم ورق أو رماد" لـ "مايسة باي".

المبحث الثاني: مفهوم الرواية التاريخية

إن الرواية التاريخية تتبني على التاريخ و تتشكل منه و تضيف عليه تارةً وتختزل منه وتتصرف فيه تارةً أخرى ، ولكنها ليست تاريخا، لانصراف كل لون إلى مهامه المتفق عليها أصلا. كما أن الرواية التاريخية ليست إعادة كتابة للتاريخ، بل إعادة تدوين الماضي على نحو جمالي، فالتاريخ "دال " و الماضي "مدلول " و التاريخ هو رؤية المؤرخ.

إن تأثير الرواية في التاريخ تأثير يتجاوز المضمون إلى الشكل، فالتاريخ يرفد الرواية بالمادة الحكائية التي يشكلها المبنى في حين أن العلوم الأخرى لا تمتلك المقومات الحكائية التي يمتلكها التاريخ. فالتاريخ يمتلك صلاحيات أعظم لأنه السرد الأكبر و ما الرواية إلا تابعة متمردة عليه. الرواية التاريخية لا تخون الموتى ولا تقدم تاريخا زائفا بل توضح مجرياته و تحلل معطياته وتختزل مفرداته، فتستحضر ما كان في (الما قبل) لتعيد بناء(المابعد).

يصف "جورج لوكاتش" الرواية التاريخية بأنها" رواية تثير الحاضر، و يعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات".[11]

أما "ألفرد شيبارد" "Alfred Sheppard" فيعرف الرواية التاريخية: "تتناول القصة التاريخية الماضي بصورة خيالية. يتمتع الروائي بقدرات واسعة يستطيع معها تجاوز حدود التاريخ، لكن على شرط أن لا يستقر هناك لفترة طويلة إلا إذا كان الخيال يمثل جزءا من البناء الذي سيستقر فيه التاريخ".[12] فهذا التعريف يؤكد أن الرواية التاريخية

[11]– جورج لوكاتش الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد كاظم، دار الطليعة، بيروت 1978 ص 89.

[12]–نقلا عن محمد نجيب لفتة:ولتر سكوت و الرواية التاريخية، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، ع 40، آذار 1997 ص 185.

عودة للماضي بغية إعادة إنتاجه مجددا إنتاجا يتجاوز حدود التاريخ تجاوزا محدودا تبرز فيه أهداف اللجوء إلى هذا اللون من الأدب.

يرى "جوناتان فيلد" J. Field أن "الرواية التاريخية تعتبر تاريخية عندما تقدم تواريخ وأشخاصا و أحداثا يمكن التعرض إليهم" .[13]

أما "ستودارد" R. Stoddard فيقدم تعريفا مغايرا لما قدمه J. Field مفاده أن الرواية التاريخية "تمثل سجلا لحياة أشخاص أو لعواطفهم تحت بعض الظروف التاريخية"[14].فبهذا هو يركز على فنية العمل أكثر من تاريخيته.

ويرى "ويستر"O. Wister أن الرواية التاريخية تمثل أي شكل سردي يقدم وصفا دقيقا لحياة بعض الأجيال".[15] أما "بيوكن" J. Buchan فإن الرواية التاريخية لديه هي كل رواية "تحاول إعادة تركيب الحياة في فترة من فترات التاريخ"[16]، فالرواية التاريخية لا بد لها أن تختص بفترة تاريخية محددة محاولة إظهارها بطريقة فنية. في حين أن "بيكر" S. Baker يرى أن الرواية التاريخية هي تلك الرواية التي" تتناول عادات بعض الناس مكتوبة بلغة حديثة"[17] ، فالتاريخ مادة يشكلها الروائي بلغته الفنية الحديثة مركزا على ما سكت عنه التاريخ.

يقوم "نجيب لفتة" بحوصلة جميع التعريفات السابقة بقوله :" هي إعادة بناء خيالية الماضي تتناول أساسا حياة جمع من الناس و عاداتهم و تقاليدهم"[18] فوجهة الرواية هي

---

[13]–نفس المرجع ص 185

[14]– نقلا عن محمد نجيب لفتة:ولتر سكوت و الرواية التاريخية، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، ع 40، آذار 1997 ص 185.

[15]–نفس المرجع ص 185

[16]– نفس المرجع ص 185

[17]– نفس المرجع ص 185

[18]– نفس المرجع ص 185

تاريخية، والماضي هو صاحب الرواية(الحكاية)، آليتها هي إعادة بناء التصور عن الماضي أما مادتها هي حياة مجموعة من الناس ضمن فترة زمنية معينة لهم عاداتهم و تقاليدهم الخاصة بهم. فهذا العمل الروائي بقدر ما هو خيالي لا يجب أن يتعارض مع ما هو واقعي.

ومن التعريفات نجد تعريف معجم المصطلحات الأدبية[19] الذي يرى أن الرواية التاريخية ليس معناها العميق الحدوث في الزمن الماضي فهي رواية تستحضر ميلاد الأوضاع الجديدة و تصور بداية و مسارا و قوة دافعة في مصير لم يتشكل بعد وهي عمل يقوم على توترات داخلية في تجارب الشخصيات تمثيلا لنوع من السلوك و الشعور الإنساني في ارتباطهما المتبادل بالحياة الاجتماعية و الفردية، و هي تمثل بالضرورة تعقيدا و تنوعا في الخبرة و التجربة.

فالرواية التاريخية "تعتمد الزمان الموثق و المكان المحدد و الحادثة المعرفة، فتستثمر جهد المؤلف الذي حقق الواقعة، و تتقاطع معه في الوقت ذاته."[20] و هذا شرط يميز الرواية التاريخية عن أي رواية أخرى قد تستثمر التاريخ دون توثيق أو دون أن يكون التاريخ هو العمود الفقري للرواية. و كذلك في هذا الصدد، يقول "عبد القادر القط": "الرواية التاريخية هي ذلك الجنس الأدبي الذي يستلهم من التاريخ مادة له، تصاغ في شكل فني يكشف عن رؤية الفنان، كذلك التفت إليه من التاريخ و يصور توظيفه لتلك الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه أو لمعالجة قضية من قضايا مجتمعه متخذا من التاريخ ذريعة التعبير عن موقفه منها".[21]

---

[19] إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية – صفاقس – تونس،1986

[20]– هاشم عرابية: عن التاريخ و الرواية، مجلة البيان، جامعة آل البيت، م 2، ع 2 ربيع 1999 م ، ص 71

[21]–عن اميمة شندي: مصر في قصص نجيب محفوظ(ر.ج) جامعة عين شمس 1991 ص 32.

و من جهة أخرى، حتى تكتسب الرواية التاريخية هذا المسمى، يجب توفير بعض الشروط التي نذكر منها:

"1.أن تعتمد حقبة موثقة من التاريخ تكون مادتها الحكائية.

2. أن تكون هذه المادة بمثابة العمود الفقري للعمل .

3. أن يعيد الروائي تشكيل هذه المادة تشكيلا روائيا فنيا.

4. أن تكون إعادة التشكيل ضمن منظور آني يربط المادة الحكائية الماضوية بالحاضر.

5. أن ينطلق الروائي في إعادة كتابة هذه المادة من وجهة نظر تخصه لغايات متعددة."[22]

نستطيع قول أن الرواية التاريخية هي"خطاب أدبي ينشغل على خطاب تاريخي مثبت سابق عليه انشغالا أفقيا، يحاول إعادة إنتاجه روائيا، ضمن معطيات آنية، لا تتعارض مع المعطيات الأساسية للخطاب التاريخي. وانشغالا رأسيا عندما تحاول إتمام المشهد التاريخي من وجهة نظر المؤلف إتماما تفسيريا أو تعليليا أو تصحيحا، لغايات إسقاطية أو استنكارية أو إستشرافية"[23].

قبل ثلاثين سنة قام "جورج مولينو" بتلخيص مفهوم الرواية التاريخية كالتالي:

« Un récit où le cadre est réel et les héros fictifs »[24].

أي بمعنى أنها رواية ذات إطار تاريخي حقيقي و البطل خيالي. و بعد خمسة عشر سنة، أصبح يوصف مفهوم الرواية التاريخية الحديثة كالتالي:

---

[22]-نضال الشمالي، الرواية و التاريخ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن 2006، ص 117.

[23]-نفس المرجع ص 117.

[24] G. Molino, qu'est-ce que le roman historique ? *In la revue d'Histoire Littéraire de la France*, 1975.N°2-3.p201."الحكي الذي يكون في إطار حقيقي مع أبطال خياليين." ترجمة شخصية.

« Des héros moyens, hommes quelconques mais représentatifs, sont pris dans une époque de crise où se heurtent deux cultures ou deux partis et se mêlent aux grands personnages et événements, exprimant la façon dont une société vit son histoire. L'accent peut être mis […] tantôt sur les grands hommes, tantôt sur les mœurs, tantôt sur les héros, mais l'essentiel se trouve dans la liaison organique des trois éléments, les événements historiques, les façons de vivre et de penser d'une époque, et en fin l'aventure individuelle des héros »[25].

فنلاحظ هنا أن ما يهم الرواية التاريخية هو كيفية ربط العوامل الثلاثة المذكورة سابق من قبل؛ الأحداث التاريخية، طريقة العيش والتفكير في مرحلة معينة و المغامرة الفردية للأبطال.

و يصنف Kurt Spang[26] (سبانق) نوعين متميزين من الرواية التاريخية:

1. الرواية التاريخية التمويهية (Illusionniste)(القرن 19).
2. الرواية التاريخية غير التمويهية (Anti-illusionniste)(القرن 20/19).

أما الرواية التاريخية التمويهية تنشأ من رغبة الكاتب في اختراع وهم صحيح(شرعي) وحقيقي لنصه، حيث أنه يقوم في روايته بإعادة عيش الماضي و تكوين ذهنيات تلك الحقبة ويركز الكاتب على أن الإنسان هو الذي يحرك التاريخ.

[25] -G molino, « histoire, roman, formes intermédiaires », in *l'Histoire comme genre littéraire*, Mesure, N°1.Paris, José Corti 1989, p63.
"أبطال مجسدين، محددين لحقبتهم أين تتصادم ثقافتين أو شخصين و تختلط بالأشخاص العظيمة و الأحداث لتبين طريقة عيش مجتمع لتاريخه. فيسلط الضوء […] إمّا على الشخصيات العظيمة أو على العادات أو الأبطال، و لكن الأهم هو إيجاد الرابط العضوي لهذه العوامل الثلاث؛ أي الأحداث التاريخية، طريقة العيش و التفكير في حقبة معينة و أخيرا المغامرات الفردية للأبطال." ترجمة شخصية.

[26] -K.Speng, 'Apuntes para una definicion de la novela de la Francea historica', dans la novela historica. Teoria Y comentarios(ouvrage collectif),E.u.N.S.A. pamploma, 1998,p51-87.

و أما بالنسبة للرواية التاريخية غير التمويهية فهي عبارة عن نقد التاريخ حيث أن الكاتب يقوم بتمثيل عناصر تاريخية أساسية في عالم خيالي من اختراعه. و يقوم بلفت انتباه القارئ إلى أن النص غير مكتمل وغير متجانس و ذلك حتى يكون منتبها و غير مخدر ويرى الكاتب هنا أن دور الإنسان في التاريخ هو جد محدد و مُقيّد.

أمّا Cowart Danil "كوارت" فقد قام بتقسيم الرواية التاريخية إلى أربعة أقسام: في القسم الأول يركز على: "كيفية سريان الأحداث"، يضع فيه "كوارت" الروايات التي تقوم بإعادة إحياء الماضي بالطريقة الأكثر درامية و ذلك بتحديد الاختلافات الموجودة بين الماضي و الحاضر، حتى في بعض الأحيان يكون ذلك بسحق النسخة الأصلية للتاريخ. روايات القسم الثاني تهتم بـ: "كيف ستجري الأحداث" تعكس ترتيب الرواية التاريخية وذلك للاهتمام بالمستقبل لا بالماضي و ذلك بعدم تخريب الحقائق التاريخية. القسم الثالث يدور حول "المنعطف، المسألة الأساسية" يهتم بالروايات التي تبحث عن تحديد الأوقات المصيرية في الماضي و التي تحاول أيضا تحديد كيف و متى أصبح الحاضر حاضرا. القسم الرابع و الأخير والمتمثل في "مرآة بعيدة"، أي الحاضر الذي يُعكس في الماضي(التاريخ يعيد نفسه)، الكتاب يعكسون حاضرهم على الماضي مما يؤدي إلى منظور جديد حول الحاضر المعيش فإما يَرون أن التغيرات التاريخية هي مجرد وهم، أو يكتشفون رموز جد غنية. و يجب الإشارة إلى أنّ روايات جد قليلة هي التي تنتمي إلى قسم واحد فقط.

استنادا إلى ما ركزنا عليه سابقا من خلال تقصي مفهوم الرواية التاريخية، يمكن لنا أن نقول أن هذه الرواية تحاول تركيب صورة لمرحلة الماضي(عنصر تاريخي) و ذلك من خلال رسم واقع تعيشه الشخصيات الفردية الخيالية(عنصر روائي). فالرواية التاريخية تحاول بقدر المستطاع الحفاظ على التاريخ كما هو، و الكاتب يستند على وثائق وكتب في روايته و ذلك لتقديم الماضي بطريقة وفية دقيقة، هذا من جهة أما من جهة أخرى

فالرواية التاريخية تحاول أن تنسي القرّاء الحاضر حيث تعتبر نوع من حلم اليقظة، رحلة إلى الماضي، شعور وكأنه قد عشنا و ساهمنا في المشاهد الموصوفة و كأنها مشاهد معيشة.

الأديبة الجزائرية "مايسة باي" في روايتها :« Pierre Sang Papier ou Cendre » "حجر دم ورق أو رماد" تتخذ تاريخ الجزائر موضوعا لها؛ فتنقل لنا أوضاع الجزائر من بداية الاستعمار الفرنسي 1830 إلى السنوات الأولى للاستقلال. و بالنسبة للعنوان، نجد أنها استعملت مقطع من شعر "بول إليوار" Paul Eluard من قصيدته الحرية "Liberté " المكتوبة في 1942، في الوقت الذي كانت في فرنسا في حرب مع ألمانيا.

Sur les pages lues

Sur toutes les pages blanches

Pierre sang papier ou cendre

J'écris ton nom…

تحتوي الرواية على خمسة و عشرون فصلا أين نجد شخصية "مدام لافرانس" (Madame Lafrance) و شخصية الطفل الذي يبقى طفلا طوال مائة وإثنان و ثلاثون سنة.

تروي لنا الأديبة في روايتها جميع المراحل التي مرّت بها الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي. بدءا من دخول "مدام لافرانس" و رجالها للجزائر عبر شاطئ سيدي فرج في سنة 1830 إلى غاية خروجهم منها سنة 1962، مرورا بكل الأحداث :(الغزوات، اغتصاب الأملاك، استغلال الأراضي الجزائرية، الاحتفال بـ100 سنة من الاستعمار الفرنسي للجزائر، سياسة القمع المستعملة من طرف الاستعمار الفرنسي، ثورة التحرير) وغيرها من الأحداث التاريخية التي بقيت راسخة في الذاكرة الجزائرية للأبد. و أيضا تقوم

الكاتبة بوصف مختلف الطرق التي استعملتها فرنسا لإخضاع الجزائر و الجزائريين، وخصوصا في القرى أين يَسود البؤس و الشقاء و الكره.

الشخصية الجزائرية "L'enfant" الطفل،الذي يبقى طفلا طوال 132سنة، هو من أحد سكان هذه القرى أين تعلم في المدرسة الفرنسية و المدرسة القرآنية معا، و الذي يشاهد ما تفعله "مدام لافرانس" في بلده الجزائر بعيون بريئة، و كأن الأراضي الجزائرية ملكها.

و تذكر أيضا الكاتبة في روايتها هذه بعض الشخصيات التاريخية مثل "الأمير عبد القادر"، الجنرال "ديغول" و أيضا شخصيات أدبية مثل" ألبير كامو" و "كاتب ياسين". وفي بحثنا هذا سنقوم بدراسة هذه الرواية، و استخراج ما يجعلها رواية تاريخية.

المبحث الثالث: تحديد الشخصية الروائية عند "فيليب هامون"

في مبحثا هذا سنقوم بدراسة النظريات المعنية بدراسة الشخصيات المرجعية التاريخية، و ذلك بالرجوع إلى ما قد قاله "هامون" في هذا الخصوص.

إن ما ميز "فيليب هامون" عن غيره من النقاد ، والدارسين في موضوع « مقولة الشخصية الروائية » هو إفراده مقالا خاصا شاملا، كاقتراح لمفهوم الشخصية، وإجراءات تحليلها، كما أنه استفاد من آراء مختلفة، محاولا في ذلك التوفيق بينها، حيث أشار في مقاله إلى اتجاهات عديدة تطرقت إلى مقولة الشخصية بالدراسة والتنظير. ففي مقاله المعنون "من أجل قانون سيميولوجي للشخصية" ومن خلال الإحالات التي أعقبت مقاله، قدم توضيحات كافية ودقيقة للمسائل التي استفاد منها.

يقترح "فيليب هامون" بعض المبادئ العامة لدراسة الشخصية الروائية، فيرى أنها تجنبه الدخول في متاهات الالتباس والغموض التي تخص الدراسة التقليدية، المعتمدة على التحليل النفسي أو التاريخي أو الاجتماعي.

فأولى اهتمامه في البداية بموضوع "العلامة " مميزا بين ثلاثة أنواع من العلامات: العلامات التي تحيل على العالم الخارجي، وقد أطلق على هذه العلامات مصطلح" العلامات المرجعية" لكونها تحيل إلى معرفة شيء ملموس مدرك (دلالة)، وهذه العلامات يمكن التعرف عليها من خلال المعجم. النوع الثاني هي العلامات التي تحيل إلى محفل ملفوظ، هذه العلامات ذات مضمون (عائم) لا يتحدد معناها إلا من خلال وضعية ملموسة للخطاب. و لا تتحدد إلا بمعاصرة مكوناته :أنا. أنت . هنا. الآن . علامات غير محددة في المعجم. أما النوع الثالث العلامات التي تحيل إلى علامة منفصلة عن الملفوظ نفسه بعيدا أو قريبا. فقد يكون هذا الملفوظ سابقا داخل السلسلة المكتوبة أو

لاحقا لها. ووظيفة هذه العلامات وظيفة ربطية واقتصادية، ويمكن أن يطلق عليها بصفة عامة علامات استذكارية[27].

وعلى ضوء هذه العلامات صنّف "فيلب هامون" الشخصيات إلى ثلاث فئات: فئة الشخصيات المرجعية، الشخصيات الواصلة و الشخصيات المتكررة[28].

في بحثنا ما يهمنا هو فئة الشخصيات المرجعية التي تنقسم إلى الشخصيات التاريخية، الشخصيات الاجتماعية (كالعامل، الفارس، المحتال)، الشخصيات الأسطورية و الشخصيات المجازية (كالحب ، الكراهية). فالمرجعية هي العودة إلى الجانب التاريخي و الاجتماعي، فهي الوظيفة التي يحيل بها الدليل اللساني على موضوع العالم غير اللساني سواءًا كان واقعيا أم خياليا و بذلك تحيل الشخصية المرجعية إلى الواقع غير النصي الذي يفرزه السياق الاجتماعي أو التاريخي.

« Une catégorie de personnages référentiels : personnages historiques, mythologiques, allégoriques, ou sociaux. Tous envoient à un sens plein et

[27]« En sémiotique, d'après Hamon, il existe trois grands types de signes : 1) les référentiels qui « renvoient à une réalité du monde extérieur ou à un concept. Ils font tous référence à un savoir institutionnalisé ou à un objet concret appris » ; 2) les déictiques ou les embrayeurs, c'est-à-dire les traces de la présence de l'auteur, du lecteur ou de leurs porte-paroles (énoncé/énonciation); 3) les signes qui renvoient à un signe disjoint du même énoncé, proche ou lointain. Leur fonction est essentiellement cohésive, substitutive et économique. Ils abaissent en effet le coût du message, ainsi que sa longueur. On peut les appeler globalement anaphoriques ». Tiré de : R. Barthes, W. Kayser, W. Booth, Ph. Hamon, poétique du récit, éditions du Seuil, Paris 1997. Page121/122.

[28]«À partir de ces trois grands types de signes, Hamon reconnaît l'existence de trois catégories de personnages : une catégorie de personnages- référentiels ; une catégorie de personnages-embrayeurs ; une catégorie de personnages-anaphores ». Tiré de : R. Barthes, W. Kayser, W. Booth, Ph. Hamon, poétique du récit, éditions du Seuil, Paris 1997. Page122/123.

fixe, […] et leur lisibilité dépend directement du degré de participation du lecteur à cette culture. »[29]

أما الشخصيات ذات مرجعية تاريخية فهي شخصيات لها أصل في التاريخ أُوردت في الرواية، مبرزة دورا فعالا و وظيفة دلالية، و منها الشخصيات السياسية. لذا سيكون مطلوبا من القارئ في حالات التلقي الاستعانة بكل المعارف الخاصة بهذه الكائنات التي تعيش في الذاكرة في شكل أحكام أو مآسي أو مواقف. و تعد هذه المعارف مدخلا أساسيا من أجل الإمساك بالإضافات التي يأتي بها النص، أو هي نقطة مرجعية استنادا إليها يمكن إسقاط كل الإنزياحات الممكنة عمّا تم تثبيته من مضامين.

فنحن في مبحثنا هذا قد قمنا باستخراج مفهوم الشخصية المرجعية التاريخية حسب "فيليب هامون"، و سنحاول في مبحثنا القادم دراسة الشخصيات التاريخية المذكورة في الرواية التي نقوم بدراستها.

[29] R. Barthes, W. Kayser, W. Booth, Ph. Hamon, poétique du récit, éditions du Seuil, Paris 1997. Page 122.

"و هي شخصيات تاريخية و شخصيات أسطورية، شخصيات مجازية (الحب، الكراهية)، شخصيات اجتماعية، تحيل هذه الشخصيات كلها على معنى ممتلئ و ثابت حددته ثقافة ما." ترجمة شخصية.

المبحث الرابع: الشخوص التاريخية

في مبحثنا السابق، قمنا بدراسة مفهوم الشخصية المرجعية التاريخية حسب "فيليب هامون"، أما في مبحثنا هذا، فسنحاول استخراج جميع الشخصيات التاريخية التي ذكرتها الساردة في الرواية، ثم سنقوم بمقارنة أقوالها في الرواية بالمقاطع المرجعية التاريخية لهذه الشخصيات. و ذلك لنرى إن قامت الساردة بإحداث تغييرات في آراء و أقوال هذه الشخصيات؛ أم أنها احتفظت بنفس المقاطع المرجعية و قامت فقط بدمجها في روايتها لإثرائها و لإعطائها طابع تاريخي أكثر.

في الرواية التي نقوم بدراستها، نجد أن الساردة قد تحدثت عن المفكر الفرنسي"ألكسيس دي توكفيل"، بداية سنحاول البحث في التاريخ لاستخراج ما قد قاله عن الجزائر و السياسة الاستعمارية المطبقة من طرف الفرنسيين، ثم نعقد مقارنة بين ما وجدناه و بين ما ذكرته الساردة في الرواية.

أول ما يستدعي انتباهنا عندما نقلب نظرنا في الفكر السائد في القرن التاسع عشر ميلادي في أوروبا هي نظرة الاستعلاء التي تطبع الفكر الغربي. فمفكرون و أدباء مثل الأديب السياسي "ألفونس دي لامارتين" أو "فكتور هيجو"، أو "ألكسيس دي توكفيل" السياسي و المؤرخ و عالم الاجتماع نراهم يحللون و يفكرون وفق معايير تحقر من شأن الشعوب الغير الأوربية، معتبرين إياها خارجة عن السياق الحضاري و التاريخي لأوروبا مسيحية متقدمة و متطورة في جميع المناحي الحياتية. ففكرة احتلال الجزائر كانت تداعب مخيلة الكثيرين من رجال السياسة و الفكر الفرنسيين باعتبارهم في حاجة إلى امتداد جغرافي و اقتصادي و ثقافي ليجلبوا ما سموه بالحضارة إلي الشعوب المتوحشة و هكذا يمحون الوجود الحضاري للدولة العثمانية.

من بين الملاحظات التي دونها "ألكسيس دي توكفيل" في رسالته هي تتعلق بجهل فرنسا لواقع الجزائر آنذاك: " لم تكن لدينا أي فكرة واضحة عن مختلف الأعراق التي تقطن بها و لا أخلاقهم، لم نكن نعرف كلمة عن اللغات التي كانت تتكلمها شعوبها، البلد ذاته، ثرواته، أنهاره، مدنه و مناخه لم نكن نعرف شيء عن كل هذا... "[30] ما يهمنا من هذه الفقرة حديث "ألكسيس دي توكفيل" عن اختلاف الأعراق و اللغات و الشعوب، فهو لم يكن يتكلم عن الجزائر بل عن بلد كما كان يريد أن يراه هو؛ لأن الشعب الجزائري لم يكن في 1830 مُكوّن من عدة أعراق و شعوب و له عدة لغات في وقت واحد.

حاول "ألكسيس دي توكفيل" منذ البداية أن يشجب الحرب كوسيلة للاستيلاء على الأراضي، واصفا ذلك بما يلي:

« D'une autre part, j'ai souvent entendu en France des hommes que je respecte, mais que je n'approuve pas, trouver mauvais qu'on brûlât les moissons, qu'on vidât les silos et enfin qu'on s'emparât des hommes sans armes, des femmes et des enfants. Ce sont là, suivant moi, des nécessités fâcheuses, mais auxquelles tout peuple qui voudra faire la guerre aux Arabes sera obligé de se soumettre. Et, s'il faut dire ma pensée, ces actes ne me révoltent pas plus ni même autant que plusieurs autres que le droit de la guerre autorise évidemment et qui ont lieu dans toutes les guerres d'Europe. En quoi est-il plus odieux de brûler les moissons et de faire prisonniers les femmes et les enfants que de bombarder la population inoffensive d'une ville assiégée ou que de s'emparer en mer des vaisseaux marchands appartenant aux sujets d'une puissance ennemie ? L'un est, à mon avis, beaucoup plus dur et moins justifiable que l'autre. Si en Europe on ne brûle pas les moissons, c'est qu'en général on fait la guerre à des gouvernements et non à des peuples. [...] Le second moyen en importance, après l'interdiction du commerce, est le ravage du pays. Je crois que le droit de la guerre nous autorise à ravager le pays et que nous devons le faire soit

[30] مسعود مجاهد الجزائري، تاريخ الجزائر، منشورات مطابع دار الأيتام الإسلامية الصناعية القدس.

en détruisant les moissons à l'époque de la récolte, soit dans tous les temps en faisant de ces incursions rapides qu'on nomme razzias et qui ont pour objet de s'emparer des hommes ou des troupeaux. »[31]

ففي نظره يصلح وحده مع العرب الحرق والسلب و التدمير. "ألكسيس دي توكفيل" ابن بيئته و فكره نابع عن اتجاهات فكرية و فلسفية سادت القرن السابع و الثامن و التاسع عشر في أوروبا النهضة و الثورة الصناعية.

هذا الإقرار أو الاعتراف لـ"ألكسيس دي توكفيل" بعد سنوات من الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد صرّح قائلا:

" أصبح السكان المسلمون أكثر شقاءا و وحشية و فوضوية مما كانوا عليه قبل أن يتعرفوا علينا.[...] لا يجب أن نكره الإنديجان علينا إرسال أبناءهم لمدارسنا. لنعينهم علي رفع مستوى مدارسهم. و على مضاعفة عدد معلميهم، و على تكوين رجال قانون و دين و التي لا تستغني عنهم الحضارة المسلمة كما هو الحال معنا."[32] فقد غيّر رأيه بالكامل؛ فلا يوجد تناقض أكبر من هذا.

[31] Alexis de Tocqueville, « Travail sur l'Algérie » (1841), dans *Alexis de Tocqueville, De la colonie en Algérie,* , éd. Complexe, 1988, p. 77.

"من جهة، لقد سمعت مرارا في فرنسا رجالا أحترمهم و لكن لا أؤيدهم، أدانوا حرقنا للمحاصيل، إفراغنا لصوامع القمح، و هجومنا على رجال غير مسلحين، و النساء و الأطفال. هذه بالنسبة لي ضرورة حتمية التي على كل من يريد القيام بحرب أن يتبعها. و إن أردت التعبير عن رأيي، هذه الأعمال لا تقلقني بما أنها مباحة في الحروب الأوربية. فما هو أكثر وحشية؛ حرق المحاصيل، سجن الأطفال و النساء، تدمير شعوب محاصرة، أو الاستيلاء في البحر على البواخر التي تنقل البضاعة التي يمتلكها عدونا؟ فبرأيي الاحتمال الأول هو أقل بربرية و وحشية من الثاني. و إن كنا في أوروبا لا نحرق المحاصيل، ذلك أننا نحارب الحكومة و ليس الشعوب. [...] الأمر الثاني المهم بعد منع التجارة هو تدمير البلد نفسه. أنا أعتقد أن حق الحرب يجيز لنا تدمير البلاد و ذلك من خلال إتلاف المحاصيل في موسم الحصاد أو في كل الأوقات و ذلك عن طريق هجومات سريعة نقوم بها من أجل الإستلاء على الرجال و الماشية." ترجمة شخصية.

[32] مسعود مجاهد الجزائري، تاريخ الجزائر، منشورات مطابع دار الأيتام الإسلامية الصناعية القدس.

و من جهة أخرى، من بين أفراد الجيش الفرنسي، الكولونيل "دي مونتنياك"، الذي شارك بكل الأساليب الوحشية الممكنة، فنجده يقول:

« Toutes les populations qui n'acceptent pas nos conditions doivent être rasées. Tout doit être pris, saccagé, sans distinction d'âge ni de sexe: l'herbe ne doit plus pousser où l'armée française a mis le pied. Qui veut la fin veut les moyens, quoiqu'en disent nos philanthropes. Tous les bons militaires que j'ai l'honneur de commander sont prévenus par moi-même que s'il leur arrive de m'amener un Arabe vivant, ils recevront une volée de coups de plat de sabre. [...] Voilà, mon brave ami, comment il faut faire la guerre aux Arabes : tuer tous les hommes jusqu'à l'âge de quinze ans, prendre toutes les femmes et les enfants, en charger les bâtiments, les envoyer aux îles Marquises ou ailleurs. En un mot, anéantir tout ce qui ne rampera pas à nos pieds comme des chiens. »[33]

فيؤكد قائلا أن المجتمع الجزائري سيُدمر إن لم يقبل بشروط الإستعمار الفرنسي؛ لن يُترك له شيئا ليستطيع العيش و سد جوعه. فالغاية تبرر الوسيلة.

أمّا في الرواية، فقد بدأت الساردة في الفصل الرابع بوصف الحديث الذي يدور بين الرجلين الجالسين في الصالون، فهي في بادئ الأمر، تصف لنا الغرفة، ثم تقوم بنقل ما يتكلمان حوله. بدأت بوصف الغرفة (الصالون)، صغيرة الأبعاد أين يوجد رجلان

---

[33] Lucien de Montagnac, *Lettres d'un soldat, neuf années de campagnes en Afrique*, éd. Plon, 1885, Lettre du 15 mars 1843, p. 334.

"كل الشعوب التي لا تقبل شروطنا يجب أن تُمحى. كل شيء يجب أن يأخذ، يُدمر، بدون استثناء السن أو الجنس؛ فلا يجب أن ينمو العشب أين يضع الجيش الفرنسي قدمه. الغاية تبرر الوسيلة، مهما قال الآخرون. أُعلم جميع الجنود الذي كان لي شرف قيادتهم؛ أنهم إن أحضروا لي عربي حي، فسيضربون بالسيف.[...] فهكذا صديقي الشجاع، كيف يجب علينا القيام بالحرب على العرب؛ قتل جميع الرجال الذين يملكون 15سنة، خطف جميع النساء و الأطفال. أي في كلمة واحدة، علينا هدم و تدمير كل ما يرفض الرضوخ عند أقدامنا مثل الكلاب." ترجمة شخصية.

يتحدثان حول مائدة من حطب ذهبي اللون، فالرجل الأول يرتدي لباسا أسود مغلقا مع ربطة عنق بيضاء اللون، أم الثاني فيرتدي معطفا مفتوحا وتحته قميص مطوق، هما يتحدثان بلباقة. فالرجل الذي يرتدي الأسود يقول أنه يوجد بعض الفرنسيين الذين هم ضد أسلوبنا الوحشي الممارس في حق الجزائريين.

« L'un d'eux porte un habit noir entièrement boutonné, éclairé d'une cravate d'un blanc immaculé. L'autre porte une veste chamarrée négligemment ouverte sur une chemise au col relevé. Ils sont confortablement installés dans des fauteuils aux sièges rembourrés, recouverts de velours crème semé de fleurettes roses. Ils devisent courtoisement, un verre à la main. L'homme tout de noir vêtu parle le premier. Voici ce qu'il dit : « J'ai souvent entendu… des hommes que je respecte, mais que je n'approuve pas, trouvé mauvais qu'on brûlât les moissons, qu'on vidât des silos et enfin qu'on s'emparât des hommes sans armes, des femmes et des enfants. »[34]

فالساردة من وراء هذا الخطاب توصل لنا فكرة وحشية الاستعمار الفرنسي، كحرقه للأراضي وقتله للشعب الجزائري وتؤكد في نفس الوقت أنه قد كان هناك بعض الفرنسيين الذين كانوا ضد سياسة فرنسا الوحشية التدميرية.

و تواصل الساردة وصف مشهدها قائلة أن الذي كان يتحدث إليه الرجل الأول يتقاسم معه نفس الآراء ووجهات النظر، فهما يريان أن سياسة القتل والحرق هي الحل الوحيد. ثم تحدد الساردة أن الشخص الذي يرتدي معطف هو "ألكسيس دي توكفيل" (Alexis de Tocqueville) الذي يعد من أكبر مفكرين الثورة الفرنسية. فهنا تحاول الساردة أن تثبت

[34]الرواية ص22. "الرجل الأول يرتدي ثوبا أسودا مغلقا مع ربطة عنق ذات اللون الأبيض الناصع. أمّا الثاني فهو يرتدي معطفا مزركشا مفتوحا و تحته قميص ذو رقبة عالية. هما جالسين في الصالون ذو الكراسي المريحة ذات اللون الباهت المختلط بالأزهار الوردية اللون. فهما يتحدثان بلباقة؛ حاملين كأسين. الرجل المرتدي الثوب الأسود يتحدث أولا قائلا: "لقد سمعت مرارا [...] رجالا أحترمهم، و لكن لا أؤيدهم، أنهم لا يوافقون على عمليات حرق المحاصيل الزراعية، إفراغ صوامع القمح و التعدي على رجال غير مسلحين، و النساء و الأطفال." ترجمة شخصية.

لنا أنه حتى المفكرون المشهورون والمرموقون كانوا يرون أن القتل والحرق هما الحل الأمثل لاحتلال الجزائر من أجل تطويرها وجعلها بلداً متحضراً.

ثم يواصل الرجل ذو الرداء الأسود قائلا: "هذه الطريقة هي ضرورة قصوى لكل من أراد احتلال العرب[...] أنا أعتقد أن قواعد الحرب ترخص لنا اللجوء إما لتدمير وحرق الحصاد أو القيام بالإبادات الجماعية. هي طبعا طرق وحشية وغير قانونية ولكنها الحل الوحيد للنجاح فيما نحاول القيام به".

« Après un long silence, l'homme en noir ajoute, sur un ton qui se veut convaincant : « Ce sont là, suivant moi, des nécessités fâcheuses, mais auxquelles tout peuple qui voudra faire la guerre aux Arabes sera obligé de se soumettre… je crois que le droit de la guerre nous autorise à ravager le pays et que nous devons le faire soit en détruisant les moissons à l'époque de la récolte, soit dans tous les temps en faisant de ces incursions rapides qu'on nomme razzias, et qui ont pour objet de s'emparer des hommes ou des troupeaux. Ce sont là assurément des procédés violents et irréguliers, mais je défie quiconque de sortir autrement du dédale où nous sommes ». »[35]

من خلال هذا الخطاب المباشر، تؤكد لنا الساردة مرة أخرى أن الفرنسيين كانوا واثقين من أن هذه الطريقة الوحشية هي الوحيدة للتمكن من إتمام مهمتها النبيلة. وتصف لنا الساردة لاحقا أن " ألكسيس دي توكفيل " يؤيد مرة أخرى كل ما يقوله الذي يتحدث إليه وفي نفس الوقت تذكر ما قد قاله له سابقا أحد أصدقائه، الكولونيل "دي مونتنياك" :

« Son compagnon, les yeux mi-clos, hoche la tête en signe d'approbation. Ces propos quoiqu'un peu plus mesurés, lui

[35]الرواية ص22. "بعد صمت طويل، الرجل المرتدي الأسود يضيف قائلا بنبرة صوت مقنعة: "إنها بالنسبة لي ضرورة محتمة و مزعجة في نفس الوقت، لكل من أراد إعلان الحرب على العرب [...] أنا أعتقد أنه بدافع الحرب، لنا الحق في تحطيم البلد و ذلك إمّا من خلال إتلاف المحاصيل الزراعية أو القيام بعمليات الإبادة الجماعية حتى نتمكن من الإستلاء على الأشخاص و قطيع المواشي. هي في الحقيقة طرق عنيفة، و غير قانونية؛ إلّا أنني أتحدى الجميع لإيجاد طرق أخرى للخروج من هذه الورطة التي نحن فيها."" ترجمة شخصية.

rappellent ceux d'un autre de ses amis, le colonel de Montagnac. Il se souvient très précisément de ses mots : « Il faut anéantir tout ce qui ne rampera pas à nos pieds, comme des chiens… Toutes les populations qui n'acceptent pas nos conditions doivent être rasées, tout doit être pris, saccagé… ». »[36]

فالجميع قد كان متفقا على هذه السياسة الوحشية هذه الممارسة ضد الشعب الجزائري.

أما لاحقا في الفصل التاسع، فقد ذكرت الساردة مرة أخرى المفكر الفرنسي " ألكسيس دي توكفيل"، الذي، بعد سنوات من الاحتلال الفرنسي للجزائر، تجرأ و كتب أن فرنسا قامت بجعل الجزائر أكثر تخلفا و بربرية مما كانت عليه قبل قدوم الفرنسيين الذين ادعوا في بادئ الأمر أنهم قدموا إلى الجزائر لجعلها بلدا متحضرا و متطورا. فهو الذي كان في بداية فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر مؤيدا لكل ما تقوله "مادام لافرانس"، و كان وفيا لها و لقراراتها، و سياستها الوحشية المرتكبة في حق الجزائريين. ولكنّه عاد ليكتب فيما بعد:

« Nous avons rendu la société arabe beaucoup plus misérable, plus désordonnée, plus ignorante et plus barbare qu'elle n'était avant de nous connaître. »[37]

فهنا تبين لنا الكاتبة أن حتى الفرنسيين قد أشفقوا على الشعب الجزائري جراء ما عاش من بؤس نتيجة للاحتلال المدمر الذي حل ببلدهم.

---

[36] الرواية ص 22. "رفيقه، ذو عينين شبه مغلقتين، يهز رأسه ليُظهر أنه يوافق رأي صديقه و ما يقوله. فحتى و إن كان ما يقوله هو غير لائق، إلّا أنه يذكره بما قاله له أحد أصدقائه؛ الكولونيل مونتياك. فهو يتذكر جيدا كلماته:" يجب تحطيم كل من يرفض أن يزحف عند أرجلنا، مثل الكلاب... كل الشعوب التي ترفض شروطنا؛ يجب أن تُمحى، فيجب أن نأخذ و أن نحطم كل شيء...". " ترجمة شخصية.

[37] الرواية ص52. "لقد ساهمنا في جعل المجتمع العربي أكثر بؤسا، أكثر خرابا، أكثر جهلا وبربرية مما كان عليه قبل مجيئنا للجزائر." ترجمة شخصية.

عند مقارنتنا لما ذكرته الساردة في الرواية و ما قد ذُكر في التاريخ، نجد أنّ الساردة قد استعملت نفس العبارات و الكلمات في حديثها عن" ألكسيس دي توكفيل " و "دي مونتنياك" ،فهي لم تغير شيئا؛ و هذا ما يدل على البحث التي قامت به لإثراء روايتها و إعطائها قدرا من المصداقية، خصوصا و أنها تتحدث عن التاريخ. فهنا الشخصيات هي حقيقية، و لم يُغير شيئا في أقوالها.

في الفصل الرابع، قامت الساردة بتصوير شخصية "مدام لافرانس " المنهزمة ثم أتبعت وصفها بسلسلة من الأمثلة المفتوحة:

« Qui a osé ? Qui a eu l'audace de mettre en péril la puissance de madame Lafrance ? Qui peut penser un seul instant pouvoir la mettre en déroute ? Un homme ? Un chef ? Il se nomme, dit-on Abdelkader. Un guerrier insaisissable, presque invincible. On dit même qu'il aurait été proclamé prince par les siens. »[38]

ففي هذا المقطع قامت الساردة بذكر " الأمير عبد القادر " ، المناضل الجزائري الشجاع الذي قاوم الاستعمار بكل ما أوتي من قوة. فبذكائه وشجاعته نجح في هز ثقة فرنسا في نفسها وزرع فيها الخوف، لكنها لم تطل الحديث عنه، بل ذكرت إنجازاته باختصار (قوته و تصديه لفرنسا بكل ما أوتي من قوة).

فنلاحظ في هذا الفصل أن الساردة قد ذكرت الشخصية التاريخية الجزائرية البطل الشجاع "الأمير عبد القادر"؛ ولكنها لم تطل الحديث عنه، بل اكتفت فقط بذكر اسمه،

[38]الرواية ص25."من تجرأ؟ من كانت له جرأة التصدي ل "مدام لافرانس"؟ من يعتقد نفسه قادرا على تحطيمها؟ من يفكر و لو للحظة أنه يستطيع هزيمتها؟ هل هو رجل؟ قائد؟ يقال أنه يسمي "عبد القادر"، محارب لا يُقهر وأتباعه قاموا بتسميته وتلقيبه أميرا عليهم." ترجمة شخصية.

ومشاركته في مقاومة الاستعمار الفرنسي. فهي لم تتطرق إلى الحديث عن إستراتجيته الحربية، و لا عن دولته و جيشه الذي أسسه و درّبه.

في الفصل الثامن تروي لنا الساردة مشهدا حواريا موصوفا، إذ يوجد رجلان يمشيان في الأراضي و يتحدثان.

« Les deux hommes longent le chemin de terre tracé par les pas de ceux qui vivent en ces lieux sordides. »[39]

فالرجل الأول يقول بأن الأطفال محظوظين لكوننا قدمنا لتحريرهم من حياتهم (بقعة) المتوحشة، لقد قمنا بتحويل مستنقعات قذرة إلى أراضي خصبة، نحن فقط من يعرف كيفية الاحتلال، كيف نستولي على الأراضي، كيف نزرعها حتى تثرينا بمنتجاتها. يواصل قوله، قل لي دكتور " بوديشون " Bodichon، ماذا نفعل بهؤلاء الرجال و النساء المتأخرين، المتوحشين، كيف نحولهم لأشخاص يحترمون القوانين و يكونون بمستوى الحضارة التي نقدمها لهم؟

« Regardez-les, regardez ces enfants ! Des gueux innombrables, vermineux, loqueteux, barbouillés d'ordure et puant la bête ! S'ils avaient une âme, ils auraient peut-être conscience de la chance que nous leur offrons ! Ils étaient opprimés par une malice avide et féroce, et nous sommes venus à eux en libérateurs. D'une contrée sauvage et désolée, nous avons fait des champs, des champs productifs. Nous avons transformé des marécages fétides, immondes, en plaines riantes et fertiles. Nous seuls avons su et savons conquérir, pénétrer, prendre possession d'une terre, la travailler jusqu'à ce qu'elle soit féconde, jusqu'à ce qu'elle nous comble de ses richesses. Mais dîtes-moi, Docteur Bodichon, dîtes-moi, comment faire de ces hommes et de

[39] الرواية ص49. "الرجلان يمشيان معا في الطريق المحدد بأقدام الذين يعيشون في هذه الأماكن القذرة." ترجمة شخصية.

ces femmes si arriérés, si sauvages, des sujets soumis à nos lois et dignes de la grandeur de la civilisation que nous leur apportons ? »[40]

و من هنا ذكرت لنا الساردة الشخصية التاريخية؛ المفكر الدكتور "بوديشون". و تواصل واصفة ردة فعله، فقد وضع يده على ذراع صديقه قائلا: "أحد أصدقائي، الجنرال "كلوزيل"، قال لي حديثا أنّ هذه أمريكا الجديدة، وأن مزايا الجزائر كانت لتكون كبيرة وكثيرة لو أنه يحدث مثلما حدث في أمريكا، أي أن تختفي سلالة السكان الأصليين ! "

« L'un de mes amis, le général Clauzel, me disait récemment, à propos de cette nouvelle Amérique, que les avantages de l'Algérie seraient immenses si, comme en Amérique, les races indigènes avaient disparu… »[41]

فهاهو الدكتور يعترف بطريقة غير مباشرة أنهم بصدد نهب أراضي و ممتلكات الجزائريين وهو يخشى ردة فعلهم و من انقلابهم عليهم. و لذلك فإن الحل الوحيد هو قتل و محو السكان الأصليين الذين يمتلكون هذه الأراضي.

و عندما لجأنا إلى كتب التاريخ، وجدنا أن الدكتور "بوديشون" قد صرّح في أحد كتبه قائلا:

« Sans violer les lois de la morale, nous pourrons combattre nos ennemis africains par la poudre et le fer joints à la famine, les divisions intestines, la guerre par l'eau-de-vie, la corruption et la désorganisation […] sans verser le

---

[40]الرواية ص49. "أنظر إليهم، إلى هؤلاء الأطفال الفقراء، الصعاليك، الطفيليين، القذرين، ذو الثياب الرثة، الملوثين بالفضلات و التي تنبعث منهم رائحة الحيوانات. لو كانوا يملكون روحا، لكانوا ربما متيقنين بالفرصة التي نقدمها لهم. لقد كانوا مضطهدين من طرف الخبث و نحن قدمنا لتحريرهم. من بقعة متوحشة و معزولة. قمنا بإنشاء الطرقات و الحقول المنتجة، نحن حولنا المستنقعات القذرة إلى سهول خصبة. نحن فقط من يعرف كيف نحتل و ندخل و نستولي على الأراضي و خدمتها حتى تعطي ثمارا و تغنينا بثرائها. و لكن قل لي دكتور بوديشون، قل لي، كيف نحول هؤلاء الرجال و النساء المتوحشين و المتخلفين إلى أشخاص جديرين بالحضارة التي نقدمها لهم؟" ترجمة شخصية.

[41]الرواية ص50. "أحد أصدقائي، الجنرال كلوزيل، قال لي مؤخرا حول هذه أمريكا الجديدة؛ أن مزايا الجزائر ستكون عديدة لو أنه يحدث مثل ما حدث في أمريكا، أن تختفي سلالة السكان الأصليين..." ترجمة شخصية.

sang, nous pourrons, chaque année, les décimer en nous attaquant à leurs moyens d'alimentation. »[42]

فقد ذهب بعض غلاة الاستعمار إلى الدفاع عن سياسة الأرض المحروقة أبعد من ذلك حيث كانوا يرون أنه يجب استعمالها ليس فقط لضمان خضوع العرب لسلطة الفرنسيين و لكن لإبادة الجنس العربي في الجزائر. رغم أن هذه المواقف الداعية للإبادة رفضت وأدينت على المستوى الرسمي إلا أن أصحابها لم يتعرضوا لمضايقات عند نشرها أو إلى العزل السياسي فالدكتور "بوديشون" على سبيل المثال كان من الشخصيات المحترمة عند الجمهوريين. و بالنسبة له، إن أقصر طريق لبلوغ غايتنا هي نشر الرعب بالحديد والنار.

عبّر "بوديشون" في كتابه المسمى "خواطر عن الجزائر"، قائلا: "لا يهم فرنسا أن تخرق في سياستها الاستعمارية المقاييس الأخلاقية وقيمها، ولكن الذي يهمنا قبل كل شيء هو تأسيس مستعمرة نملكها بصفة نهائية، وننشر على الشواطئ البربرية المدينة الأوروبية. ومن البديهي أن أقصر الطرق لبلوغ غايتنا هو نشر الرعب."[43]

فنلاحظ من خلال مقارنتنا ما وجدناه في التاريخ حول الدكتور "بوديشون" و ما ذكرته الساردة في روايتها، أنها قد ذكرت بالضبط ما قد قالته هذه الشخصية في الحقيقة. فهي اكتفت بنقل أقواله و دمجها في الرواية.

---

[42] Kateb Kamel, *Européens, « indigènes » et juifs en Algérie (1830-1962)*, Paris, Ined/PUF, 2001, page 40.

"دون اختراق قوانين الأخلاق و لا القانون الدولي يمكن لنا محاربة أعداءنا الأفارقة بالنار والحديد مضيفاً إلى ذلك المجاعات، نشر الكحول وبث النزاع فيما بينهم.[...] دون إراقة الدماء يمكن القضاء على العرب بالهجوم على سبل عيشهم، بالسطو على مدخراتهم في كافة مناطق الجزائر." ترجمة شخصية.

[43] *www.adva.org/uploaded/A-kibush2012-site.pdf*

في الفصل السادس عشر، قامت الساردة باستعمال المشهد الحواري الموصوف، حيث تحدثت عن رجلين يمشيان على شاطئ البحر، هما كاتبان، فيقول الأول ذو الوجه الشديد، الذي يرافق كلامه حركات يقوم بها بيديه: هل تتذكر ماذا كتبت قبل ستة سنوات، في رحلتي إلى بلاد القبائل سنة 1939؟ أنا أراهم دائما، هؤلاء الأطفال الذين ينافسون الكلاب في البحث في سلة المهملات عن ما يكون صالحا للأكل[...]. فالساردة تتحدث هنا عن الكاتب الشهير "ألبير كامو".

« Te souviens-tu de ce que j'écrivais il y a seulement six ans, après mon séjour en Kabylie en 1939 ? Je les revois encore, ces enfants en loques qui disputaient à des chiens kabyles le contenu d'une poubelle… et ces autres qui s'évanouissaient de faim dans les écoles. C'était la vérité ; une vérité criante mais révélatrice. J'ai dénoncé en son temps cette exploitation intolérable du malheur. Rien, non rien, n'a changé depuis. Sais-tu qu'aujourd'hui encore, la ration attribuée à l'indigène est inférieure à celle qui est attribuée à l'européen ? Elle l'est dans les principes, puisque le français a droit à trois cents grammes par jour et l'arabe à deux cent cinquante grammes. Elle est encore dans les faits, puisque l'arabe touche cent cinquante grammes… »[44]

فهنا تظهر لنا الساردة الظلم الذي يعيشه الشعب الجزائري المذكور على لسان كاتب فرنسي الذي هو ضده بالكامل و الذي يعطي الحق للشعب الجزائري. يتوقف قليلا، مشاهدا أمواج البحر المتلاطمة على الصخور و يكمل خطابه قائلا: " منذ الاحتلال الفرنسي لا يمكننا القول أن النظام الاستعماري في الجزائر كان نظاما متناسقا و

[44]الرواية ص92/91. "هل تتذكر ما كتبته قبل ستة سنوات، بعد رحلتي إلى بلاد القبائل سنة 1939؟ ما زلت أراهم، هؤلاء الأطفال ذو الثياب الرثة الذين ينافسون الكلاب في البحث في سلة المهملات عن ما يكون صالحا للأكل [...] و الآخرين الذين كان يُغمى عليهم في المدارس. إنا الحقيقة المؤلمة و التي تدل على أشياء كثيرة. لقد واجهت وقتها هذا الاستغلال و البؤس و لكن لا شيء تغير منذ ذلك الحين. هل تعلم أن اليوم حصة الأكل التي يتناولها المواطن الجزائري هي أقل من تلك المعطاة للأوربي؟ ذلك أنّ الفرنسي يستهلك 300غ في اليوم و العربي 250غ. أمّا في الحقيقة، فالعربي يستلم 150غ [...]."ترجمة شخصية.

عادلا[...] خصوصا بعد ما حدث مؤخرا في قسنطينة. كيف يمكننا تقبل تلك المذبحة الشرسة التي أظلمت احتفالات النصر؟".

« Depuis la conquête, il n'est pas possible de dire que la politique française coloniale en Algérie se soit montrée très cohérente… ce qui s'est passé ces dernières semaines dans le Constantinois… comment accepter les massacres sauvages et la répression tout aussi sauvage qui ont enténébré les fêtes de la victoire ? »[45]

فهنا الساردة تحدثت عن أحداث 8 ماي 1945 التي خرج فيها الشعب الجزائري يحتفل بنصر فرنسا في الحرب العالمية الثانية، و بالتالي الحصول على حريته بعد الوعود التي أعطتها إياها بالحصول على الاستقلال إن شاركوا في الحرب و ربحت فرنسا. فالساردة هنا تذكر الأحداث الأليمة التي عاشها الشعب الجزائري ذلك اليوم، فبدلا من أن تكون فرحة كبيرة للشعب، أصبحت مجزرة مميتة خلفت 45 ألف شهيد على المستوى الوطني.

نجد في الرواية أيضا الحوار الداخلي (المونولوج)، أين تقوم الساردة بوصف طفل (شاب صغير)، جالس على الرمل، منغلق على نفسه، قام بضم رجليه مع صدره و كأنه يحاول التخفيف من آلام جسدية، ناظرا للأفق و يقول في نفسه:

« « Fallait pas partir… si j'étais resté au collège, ils ne m'auraient pas arrêté… les automitrailleuses, les automitrailleuses… y en a qui tombent… y en a qui courent parmi les arbres… L'ancien combattant qui empoigne un clairon… Est-ce que la Diane ou la guerre sainte ? Ils disaient… ils me disaient : « tu seras exécuté demain »… »[46]

---

[45] الرواية ص92. "منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر، لا يمكننا القول بأن النظام الاستعماري في الجزائر كان نظاما متناسقا... الذي حدث في الأسابيع الماضية في قسنطينة... كيف نتقبل تلك المجازر الشرسة و الاضطهاد الذين جعلوا من احتفالات النصر أياما سوداء؟" ترجمة شخصية.

[46] الرواية ص93."كان لا يجب أن أذهب ... لو بقيت في الثانوية لما قاموا بالقبض عليّ... الرشاشات، الرشاشات ... البعض يسقط ... البعض يجري بين الأشجار ... المناضل القديم الذي يمسك بالبوق ... كانوا يقولون ... كانوا يقولون لي: " ستُعدم غدا ...". " ترجمة شخصية.

أي من خلال هذا المونولوج، تحاول الساردة أن تنقل لنا معاناة الشاب، و خوفه الشديد، فهو مقهور من شدة الخوف و الهلع.

ثم تواصل الساردة مباشرة وصفها للمشهد الحواري قائلة بأن الرجل الثاني يواصل كلامه قائلا:

« Mais je pense- et je sais bien, Albert, que tu partages mon point de vue- que rien ne légitime les atrocités commises sur des civils, sur des innocents, quels qu'ils soient… des tueries odieuses et injustifiables, il faut le dire ! On vient de publier les premiers bilans ! D'un côté cent deux morts, et plus de cent blessés français. Parmi eux, des femmes et des enfants. Et de l'autre, des représailles qui dépassent en férocité tout ce qu'on aurait pu imaginer…. On parle de … de plusieurs milliers de morts, mais on se refuse à donner des chiffres… oui, tout a été mis en œuvre… les avions, les bâtiments de guerre, les parachutistes… et les tirailleurs sénégalais qui n'ont pas été les plus… les plus tendres. Des mains tranchées, des cadavres mutilés, des familles entières décimées, des villages détruits, bombardés par les forces navales… »[47].

من خلال هذا الخطاب أظهرت لنا الساردة أنه حتى المثقفون قد كانوا ضد الوحشية الممارسة ضد الشعب الجزائري، فالفرنسيين قد أبوا أن يعطوا الأرقام الحقيقية لعدد موتى الجزائريين و قد قاموا بقتلهم بشتى أنواع الوسائل الوحشية الممكنة.

[47]الرواية ص94/93. "لكن أنا أظن و أعرف جيدا، ألبير، أنك تشاطر رأيي من حيث أن لا شيء يبرر الوحشية المرتكبة في حق المواطنين، الأبرياء، مهما كانوا [...] عمليات الإبادة الشنيعة و غير مبررة! لقد قاموا بنشر عدد الضحايا! فمن جهة 102 قتلى و أكثر من مئة جريح فرنسي؛ من بينهم نجد نساء و أطفال. و من جهة أخرى الثأر و الانتقام اللذان تجاوزا كل حدود الوحشية، فنحن نتحدث عن آلاف القتلى و لكنهم يرفضون إعطاء الأرقام [...] لقد استعملوا جميع الوسائل [...] الطائرات، سفن القتال، المظلات [...] و حتى القناصين السينيغاليين الذين لم يرحموا أحد [...] قُطِّعت الأيادي و شُوِّهت الجثث و أُحرقت عائلات بأكملها، القرى دُمرت و قُصفت من طرف القوات البحرية." ترجمة شخصية.

وإذا ما نحن عدنا إلى المقالات والتحقيقات التي نشرها في جريدة « Alger Républicain»، وهو لا يزال شاباً في الثامنة والعشرين من عمره، فإننا نجد تلك المقالات وتلك التحقيقات ثمرة جولة قام بها "ألبير كامو " في منطقة القبائل، وفي عاصمتها تيزي وزو، وذلك عام 1939. وفي جميعها، نحن نجد أنفسنا أمام شاب أدرك مبكراً بعد أن شاهد البؤس الذي يعاني منه السكان الأصليون، والمظالم المسلطة عليهم، انه لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يقبل بتواصل الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر على الشكل الذي كان عليه في ذلك الوقت. وهو يكتب قائلا:

« Par un petit matin, j'ai vu à Tizi-Ouzou des enfants en loques disputer à des chiens kabyles le contenu d'une poubelle. À mes questions, un Kabyle a répondu: « C'est tous les matins comme ça. » Un autre habitant m'a expliqué que l'hiver, dans le village, les habitants, mal nourris et mal couverts, ont inventé une méthode pour trouver le sommeil. Ils se mettent en cercle autour d'un feu de bois et se déplacent de temps en temps pour éviter l'ankylose. Et la nuit durant, dans le gourbi misérable, une ronde rampante de corps couchés se déroule sans arrêt. »[48]

إن سكان المنطقة أعلموه أيضاً، أن معلمي المدارس الابتدائية يستقبلون يومياً العديد من التلاميذ وقد غزا القمل ملابسهم وشعر رؤوسهم، وأن جميع هؤلاء التلاميذ يكتفون طول النهار بأكل قطعة من الخبز اليابس.

نشر الروبورتاج على عشر حلقات بين 5 و15 حزيران (يونيو) 1939، وفيه أخبر "كامو " عن عائلة عاشت من دون طعام ليومين أو ثلاثة، وعن خمسة أطفال هلكوا إثر

[48] http://www.histoire.presse.fr/actualite/infos/albert-camus-misere-kabylie-in-alger-republicain-1939-22-11-2010-16441.

«مبكراً، ذات صباح، رأيت في «تيزي اوزو»، أطفالاً يرتدون أسمالاً بالية يتقاتلون مع كلاب قبائلية من أجل الحصول على محتويات صندوق قمامة. وعندما سألت قبائلياً، أجابني قائلا: «هذا يحدث كل صباح!». وثمة رجل آخر أعلمني أن سكان القرية الذين بالكاد يجدون طعاماً، ولباساً، اكتشفوا طريقة لكي يستطيعوا النوم في أيام الشتاء، فهم يتحلقون حول النار، ويتنقلون بين وقت وآخر لتلافي القشط (تصلب مفصل أو التصاقه . المنهل)، وطول الليل في الكوخ البائس، تظل حلقة من الأجساد النائمة تتحرك وتزحف دونما توقف» ترجمة شخصية.

تناول أعشاب برية سامّة... أرّخ " كامو" لتلك الحقائق وأرفقها بصور فوتوغرافية، فاضحاً ممارسات الإدارة الاستعمارية التي سارعت إلى إرسال موفد إلى المنطقة ذاتها، فأنجز تحقيقاً مضاداً يتغنّى بـ«فضل فرنسا على أهالي القبائل». لكنّ التاريخ لم يحتفظ إلا بروبورتاج " كامو" ، الذي وجّه رسالة علنية إلى الحكومة الفرنسية: «إذا كنتم غير قادرين على فعل شيء، فاتركوا هذا الشعب يعيش فخوراً ومنسجماً مع ذاته».

ومستخلصاً العبرة من مشاهداته تلك، يهاجم " ألبير كامو" السياسة الاستعمارية في الجزائر، قائلا: «انه لأمر جدير بالاحتقار، أن نقول إن هذا الشعب . يقصد الشعب الجزائري . ليس له احتياجات مثل احتياجاتنا نحن الفرنسيين. وحتى إذا لم تكن له بعد مثل هذه الاحتياجات، فإنه حان الوقت لكي نخلقها له. وإنه لشيء مثير للفضول، أن نرى كيف أن خصال شعب يمكن أن تشرِّع الإذلال الذي فُرض عليه وكيف أن القناعة المثالية للفلاح القبائلي يمكنها هي أيضاً أن تبرِّر الجوع الذي يعذبه. لا، ليس على هذه الصورة، يمكن أن ننظر إلى الأشياء. وليس على هذه الصورة، يمكن أن ننظر إليها مستقبلا. ذلك أن الأفكار الجاهزة والآراء المسبقة تصبح شنيعة وكريهة إذا ما نحن طبّقناها على عالم فيه الناس يموتون جوعاً وبرداً، وفيه الأطفال يقتاتون من قوت الحيوانات من دون أن تكون لهم غريزتها التي تحميها من الهلاك. والحقيقة أننا نعاشر شعباً متخلفاً علينا بثلاثة قرون ونحن وحدنا فاقدو الحسّ»[49].

يحرص "كامو" على تقديم رؤية اقتصادية لأسباب هذا البؤس ويدعم كتابته بالأرقام، متحدثا عن القمح وطرق توزيعه، وكمياته حيث كانت العائلة مضطرة لأن تستخدم 10 كيلو من القمح لمدة شهر، وفي بعض المرات لثلاثة أشهر. وتحدث عن بحث السكان عن مصادر أخرى للتغذية حيث كانت تمثل الأشواك وجذور الأشجار والحشائش مصدرا للتغذية. كما ويقدم صورة عن حياة العمال الذين يعملون حتى منتصف الليل ثم يعودون

[49] ألبير كامو يكتب عن الجزائر وصاحب «في انتظار غودو» في أيامه الأخيرة http://www.aawsat.com.

لقضاء ساعات قليلة قبل أن يبدؤوا السير إلى أعمالهم في الساعة الثالثة صباحا. في داخل تحليله للبؤس في هذه المناطق يشير "كامو" إلى أثر الأزمة الاقتصادية العالمية على أهلها، فقد اضطر الآلاف من أبنائها العاملين في الخارج للعودة والانتظار.

و قد وجدنا أيضا أن الكاتب الفرنسي قد علّق على أحداث 8 ماي 1945. فقد طلب "ألبير كامو" في جريدة النضال أن نطبق على الجزائريين الأسس الديمقراطية التي يطالب بها الفرنسيون. فهو يؤكد قائلا أن العرب هم موجودون، وأن الفرنسيين ليسوا أفضل منهم؛ إلّا في شروط الحياة، فالعرب لا يملكون أدنى شروط حياة ملائمة وعادية.

« Il affirme que « le peuple arabe existe », qu'il « n'est pas inférieur sinon par les conditions où il se trouve ». Plus encore, il proclame que « l'Algérie est à conquérir une seconde fois ». »[50]

و يضيف قائلا أن الجوع، المجاعة، البطالة و المعاناة، هي الكلمات التي تلخص ظروف الحياة الاجتماعية للشعب الجزائري المُحتل من طرف الفرنسيين :

« « Des hommes souffrent de la faim et demandent la justice... Leur faim est injuste. » Écrivait Albert Camus début 1945 dans *Combat*. »[51]

من هنا نجد أن الساردة قد تقيدت تماما بما قد قاله "ألبير كامو"، فهي أعادت ذكر ما قد كتبه في الروبورتاج الذي قام به.

ثم تعود الساردة لاستعمال المونولوج، فذلك الشاب الفتي يقول: "في المكتبة هذه المرأة، أستاذتي في الرسم... كانت تصرخ... كانت تصرخ... و قالت لي: "إذن "كاتب"، هذه هي ثورتكم ؟ هل أنت سعيد؟" ".

[50]Yves Benot « Mai 1945 : les "événements de Sétif" analysés par Albert Camus » [archive], 28 mars 2005.

[51] نفسه. "الشعب يعاني من الجوع و يطالب بالعدل... جوعهم هو غير عادل." فهذا ما كتبه "كامو" في جريدة Combat عن الشعب الجزائري." ترجمة شخصية.

« Et dans la librairie, cette femme, mon professeur de dessin… elle criait… elle criait… elle m'a dit : « Eh bien, Kateb, la voilà votre révolution ! Vous êtes content? » »[52]

إذن الشاب هو الكاتب الجزائري "كاتب ياسين" الذي عانى أيضا الكثير من الاستعمار الفرنسي، و قد كان يظهر دائما لمعلمة الرسم أنه على الجزائريين أن يحاربوا من أجل استقلالهم، فبعد كل هذه المجازر سألت المعلمة تلميذها إن كان راضيا عن هذه الثورة وعن نتائجها؟

تطرقت الساردة إلى الحديث عن الكاتب الجزائري "كاتب ياسين" الذي شارك في مظاهرات 8 ماي 1945، قبض عليه بعد 5 خمسة أيام بـ"بوقاعة "فسجن وعمره لا يتجاوز 16 سنة، وكان لذلك أبعد الأثر في كتاباته. بعدها بعام فقط نشر مجموعته الشعرية الأولى "مناجاة". دخل عالم الصحافة عام 1948 فنشر بجريدة الجزائر الجمهورية « Alger Républicain » التي أسسها رفقة "ألبير كامو". فالساردة اكتفت بذكر مشاركته في الثورة و ذلك من خلال دمج شخصيته في إطار روائي تخيلي، و ذلك نظرا لصغر سنه أثناء تلك الفترة الاستعمارية.

في الفصل الثالث و العشرون، ذكرت الساردة "شارل ديغول" حيث تحدثت عن مكانته أثناء تلك الفترة الاستعمارية.

« C'est un héros de la résistance en qui ils avaient aveuglément cru lorsque, à peine quelques années plus tôt, les bras levés en V de la victoire, il avait prononcé, à leur intention, cette formule magique : je vous ai compris ». »[53]

---

[52]الرواية ص94."في المكتبة هذه المرأة، أستاذتي في الرسم... كانت تصرخ... كانت تصرخ... و قالت لي: "إذن "كاتب"، هذه هي ثورتكم ؟ هل أنت سعيد؟" ". ترجمة شخصية.

[53] الرواية ص 138. "هو بطل المقاومة؛ الذي وثقوا فيه، قبل سنوات قليلة عندما رفع ذراعيه على شكل حرف V الذي يدل على كلمة النصر، فقد قال لهم جملته الشهيرة: لقد فهمتكم."ترجمة شخصية.

فهنا تتكلم الساردة عن يوم 4 جوان 1958 الذي نطق فيه الجنرال "شارل ديغول" في الجزائر العاصمة مقولته الشهيرة لقد فهمتكم « Je vous ai compris ». هذا الكلام كان موجه للجماهير التي حضرت التجمع والمتكونة من المعمرين الأوربيين المعروفين باسم الأقدام السوداء و الجزائريين. أي السكان الأصليين. بعد يوميين في 6 جوان 1958 "شارل ديغول" يصرخ من مدينة مستغانم في الغرب الجزائري تحيا الجزائر الفرنسية!

فنلاحظ هنا أن الساردة قد قامت باستعمال جملة "شارل ديغول" الشهيرة التي قالها أثناء زيارته للجزائر في الرابع من شهر جوان بعد تسلمه السلطة، عندما استقبل في المطار بهتافات الفرنسيين في طريق الوفد فقد ردّ عليهم بعبارة مقتضبة وهي: "لقد فهمتكم."

« Ils n'ont rien signé, eux, les français d'Algérie ! Non ! Contrairement aux déclarations faites par De Gaule, la République algérienne indépendante n'existera pas, ne sera pas. »[54]

ثم تذكر الساردة أنّ فرنسيي الجزائر لم يؤمنوا بما قاله "شارل ديغول" الذي أعلن بتاريخ 16 سبتمبر 1959عن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم و حذّر الجزائريين من أنهم إذا اختاروا الانفصال فإن فرنسا ستوقف عنهم كل دعم ومساندة، وأنها ستقوم بكل ما يجب لتجميع الجزائريين الراغبين في البقاء فرنسيين.

لقد وجد "شارل ديغول" معارضة شديدة من قبل المعمرين في الجزائر والعسكريين الذين لم يقتنعوا بفكره، لقد عوّدهم الآخرون بالجزائر الفرنسية، كما أنهم أمضوا قرناً وربع قرن من الزمن في هذه البلاد، وهم ينتسبون إلى أكبر دولة بجيوشها وإمبراطوريتها، فكيف يقتنعون بين يوم وليلة بأن الجزائر ستخرج من أيديهم إلى أيدي من كانوا يحتقرونهم ويستغلونهم أبشع استغلال ، ولكن المآسي التي تحملتها فرنسا حكومة وشعباً من جراء القضية الجزائرية وثورة الجزائر كان المخرج الوحيد منها هو ترك البلاد لأهلها.

[54] نفسه ص 139. "فرنسيين الجزائر لم يوقعوا على شيء، لا، فعكس ما صرّح به "ديغول"، الجمهورية الجزائرية المستقلة لن تكون و لن تُقام." ترجمة شخصية.

فهنا أيضا نجد أن الساردة قد تقيدت تماما بما قد حدث تاريخيا و نقلت الأحداث من دون أن تحدث أي تغيير عندما ذكرت "شارل ديغول".

بعد دراستنا هذه، نستخلص إلى أن الساردة قد ذكرت في روايتها العديد من الشخصيات التاريخية، فرنسية و جزائرية: "ألكسيس دي توكفيل"، "دي مونتنياك"، "الأمير عبد القادر"، دكتور "بوديشون"، "ألبير كامو"، "كاتب ياسين" و "شارل ديغول". و في كل مرة؛ عندما عدنا إلى المقاطع المرجعية، وجدنا أنّ الساردة قد تقيدت تماما بما قالته هذه الشخصيات أثناء الفترة الاستعمارية. فهي اكتفت بدمج هذه المقاطع في روايتها، و ذلك راجع إلى الطابع التاريخي التي تتسم به. فهي لم تضف شيئا، حيث أنها ذكرت كل ما قد صرّحت به هذه الشخصيات عن السياسة الوحشية البربرية المطبقة على الشعب الجزائري أثناء فترة الاستعمار، و عن المجتمع الجزائري الذي كانت تسوده المعاناة، البؤس و الفقر. أمّا حين ذكرت "الأمير عبد القادر" و "كاتب ياسين"؛ فهي لم تطل الحديث عنهما، بل اكتفت بتمجيد "الأمير عبد القادر"، و ذكر بطولاته و إنجازاته باختصار. أمّا بالنسبة لكاتب ياسين فقد ذكرت الساردة باختصار أنه كان شابا أثناء تلك الفترة، وكان ضد فكرة الخضوع للاستعمار الفرنسي الوحشي.

المبحث الخامس: الرواية التاريخية و كتابة التاريخ

في مبحثنا هذا سنقوم بدراسة كيفية كتابة التاريخ؛ و ذلك بالرجوع إلى أبرز ما قاله المنظِّرين في هذا المجال. و سنحاول إسقاط ما وجدناه على رواية "مايسة باي"؛ حجر دم ورق أو رماد، التي نحن بصدد دراستها.

كيف نكتب التاريخ (Comment écrit-on l'histoire) هو السؤال الذي يطرحه "بول ڤاين " Paul Veyne الذي يشكل في نفس الوقت عنوان كتابه الذي يدرس فيه التاريخ و مفهومه و تطوره. في المقام الأول، "ڤاين" يهتم في كتابه بمفهوم الحدث، الأحداث الإنسانية و آثارها في الوثائق المكتوبة ليصل إلى الحقيقة التالية:

« L'histoire est anecdotique, elle intéresse en racontant comme le roman […]. Seulement, ici, le roman est vrai. […] L'histoire est un récit d'événement vrai.»[55].

إذن هو يرى أن التاريخ هو رواية بأحداث حقيقية، والشرط الوحيد هو أن يكون الحدث واقعي (قد حدث فعلا).هذا التقابل بين التاريخ و الرواية هو جد واضح عند "ڤاين" و لكنه أدّى إلى نقد المؤرخين، فبالنسبة لهم التاريخ هو علم و لا يجوز مقابلته بالرواية.

« Il n'existe pas de méthode de l'histoire parce que l'histoire n'a aucune exigence : du moment qu'on raconte des choses vraies, elle est satisfaite. Elle ne cherche que la vérité, en quoi elle n'est pas la science, qui cherche la rigueur.»[56]

---

[55]-P.VEYNE, comment on écrit l'histoire, Seuil, Paris, 1971 page.23.

"التاريخ هو قولي؛ نهتم به لأنه يروي و يحكي مثل الرواية […]. إلّا أنه هنا الرواية هي حقيقية.؛ فالتاريخ هو حكي حادثة قد وقعت بالفعل." ترجمة شخصية.

[56] نفسه ص 25. "لا توجد طريقة لدراسة التاريخ بما أننا ندرس أحداث قد وقعت بالفعل. فالتاريخ يبحث عن الحقيقة و هو ليس بعلم بما أنه لا يبحث عن الدقة." ترجمة شخصية.

بهذا نستخلص مما سبق أنه بالنسبة لـ "ڤاين" التاريخ هو رواية وليس بعلم و يسميه أيضا بالمعرفة المبتورة: « connaissance mutilée » التي تروي من الأحداث الماضية إلا ما يمكن معرفته بالضبط و فقط. إذ أنه لا يمكن كتابة تاريخ أحداث لم يتبق منها أي آثار. و عندما نعود إلى روايتنا التي نحن بصدد دراستها، نجد أن الساردة تتحدث عن أحداث تاريخية حقيقية، قد وقعت بالفعل، من خلال نقل أحداث فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر من 1830 إلى 1962.

يرى "ڤاين" أن وهم الكتابة الكاملة للتاريخ هو نتيجة المصادر المكتوبة التي تعطي أجوبة و تطرح أيضا أسئلة وبهذا، فإن هذه المصادر تجعلنا نجهل أشياءً عديدة و تجعلنا أيضا نجهل ما لا نعرفه بدقة أي ما نجهله. إذن المعرفة التاريخية هي مبنية فقط على الوثائق المبتورة و الموجودة و المتوفرة.

فنجد في روايتنا أن الساردة قامت بدمج المقاطع المرجعية حين تحدثت عن بعض الشخصيات التاريخية مثل "ألكسيس دي توكفيل، شارل ديغول، ألبير كامو" و غيرهم. وفي كتابتها للرواية، لجأت إلى الوثائق التاريخية، لإثرائها و إعطائها أكثر مصداقية و ذلك بدمج المقاطع المرجعية مباشرة.

يرى "ڤاين" أن التاريخ يتكون من نفس المادة المكون منها حياة كل واحد منا و أن الأحداث التاريخية لا توجد منعزلة و لكن في علاقة مع أحداث أخرى. وهذا ما يعطي عند "ڤاين" مفهوم الحبكة و التي تدل بطريقة أخرى أن ما يدرسه المؤرخ هو أيضا إنساني بقدر ما هو في الرواية و الدراما. و الحبكة بالنسبة لـ "ڤاين" هي خليط جد إنساني من الصدف و الأسباب المادية و الحدث هو لا شيء خارج حبكته:

« Un événement, quel qu'il soit, implique un contexte, puisqu'il a un sens ; il renvoie à une intrigue dont il est un épisode, ou plutôt à un nombre

indéfini d'intrigues ; inversement, on peut toujours découper un événement en événements plus petits »[57].

فبالنسبة لـ"ڤاين"، المؤرخين يقوم عملهم على التفكير، فهم يلاحظون، يتساءلون ويدرسون طرقهم و أهدافهم، يدرسون كيف و متى و شكل هذا التاريخ الذي يُعْرَف و يريد أن يُعَرّفْ. المؤرخ لا يهتم بالأحداث الفردية و لكن بخصائصها و هذه الأحداث ليست منعزلة فهنا المؤرخ يبحث في الأسباب، الأهداف، الفرص، الصُدَفْ، الأعذار... فكل حدث ينتمي إلى نظام طبيعي معين، فعندما يختار المؤرخ موضوعه الخاص الذي هو غير متغير يبدأ بالبحث عن النظام الذي ينتمي له هذا الحدث و يعطي تفسيرات وشروحات خاصة، قد تكون قريبة من الحدث المُتحدَّث عنه و قد تكون بعيدة كل البعد عنه، و لكن الروابط و العلاقات بين مختلف الأحداث لا أحد يستطيع تغييرها، و الحدث التاريخي لا يستطيع الوجود بدون حبكة معينة. فحبكة الرواية التاريخية تقوم على ما هو إنساني و ليس شرطا أساسيا أن تكون مرتبة ترتيبا زمنيا معينا.

لهذا قامت الساردة برواية الأحداث التاريخية من خلال نقل معاناة الشعب الجزائري جرّاء الاستعمار الفرنسي من جهة، و أيضا بتسليط الضوء على وحشية و بربرية الاستعمار في الجزائر من جهة أخرى، والذي كان يتسم بطابع تدميري لكل ما يصادفه .تساءلت في مرات عديدة عن أسباب المعاناة التي يعيشها الشعب الجزائري، أرادت توضيح شكل هذا التاريخ الذي تتحدث عنه؛ و قدّمت هذه المعلومات ككل، فهي مترابطة و متصلة بعضها ببعض.

بالنسبة لـ"دي سيرتو" De Certeau ، يتلخص عمله في تحديد ما تقدمه الفلسفة، و علم تحليل النفس، و الانتربولوجيا، و علم الاجتماع للتاريخ، و هو يؤكد:

[57] نفسه ص53. "الحدث مهما كان يتضمن قرينة لأنه يملك معنى، فهو يدل على حبكة التي يشكل حلقة منها، أو على عدد غير متناهي من الحبكات. و بالعكس، يمكننا دائما أن نقسم الحدث إلى أحداث أصغر منه." ترجمة شخصية.

« La représentation -mise en scène littéraire- n'est "historique "que si elle s'articule sur un lieu social de l'opération scientifique, et si elle est, institutionnellement et techniquement liée à une pratique de l'écart par rapport aux modèles culturels et théoriques contemporains. Il n'a y pas de récit historique là où n'est pas explicitée la relation à un corps social et une institution de savoir »[58].

فالكيان الاجتماعي عنصر جد مهم من أجل نقل الأحداث التاريخية .لهذا ركزت الساردة في روايتها على آلام و معاناة الشعب الجزائري الممثل بشخصية الطفل .فالنص التاريخي يتأرجح ما بين إقامة التاريخ و رواية التاريخ.

يرى "ريكور" P. Ricoeur أن فلسفة التاريخ و تحليله تتمحور حول ثلاث مسائل رئيسية:

1-مسألة الحقيقة(La question de vérité).

2-مسألة الزمن و الحكي (La question du temps et du récit)

3-مسالة الذاكرة و النسيان (La question de la mémoire et de l'oubli)

و قد كتب " ريكور" (Ricœur) كتابه الشهير : التاريخ و الحقيقة (Histoire et vérité) حيث أنه بدأ في مقدمته بالحديث عن طريقة دراسة التاريخ. يبين "ريكور" أن في التاريخ تتشابك الموضوعية و الذاتية، الشرح و الفهم ومنه مهمة المؤرخ تقوم على ترجمة و تسمية ما لم يعد موجود، الذي وجد في الماضي و لكن بطريقة و مفاهيم معاصرة. فهنا تكمن الموضوعية، أما الذاتية هي عندما يلجأ المؤرخ للخيال لنقل المفاهيم و الحقائق بطريقة مبسطة لمعاصريه.

[58] -M.de Certau, *l'écriture de l'histoire*, Paris, Gallimard , 1975, p361.
"التمثيلات التي تتدرج أدبيا لا تكون تاريخية إلّا إذا كانت تدور في مكان اجتماعي للعملية العلمية، و إذا كانت تقنيا مرتبطة بتطبيق الفوارق بالنسبة للنماذج الأدبية و النظرية المعاصرة. فلا وجود للحكي التاريخي أين لا تظهر العلاقة بالكيان الاجتماعي و مؤسسة العلم." ترجمة شخصية

« Ce que l'histoire veut expliquer et comprendre en dernier ressort. Ce sont les hommes. Le passé dont nous sommes éloignés, c'est le passé humain »[59].

أي أن التاريخ يتمحور حول الماضي الإنساني لأنه يحاول الحديث عن الإنسان، فالذاتية هنا لا مفر منها لأن الخيال هو الوسيلة الوحيدة و الأساسية لفهم التاريخ.

في الرواية التي نحن بصدد دراستها، نجد أن الساردة قد أضافت عناصر خيالية مثل شخصية الطفل و شخصية "مدام لافرانس". فهي لم تستعمل اسم علم، بل استوحت الأسماء من خيالها، فقد تركت شخصية الطفل مجهولة، بدون اسم معين و ذلك لأنه يعبر عن كل الشعب الجزائري، و لكن في كل مرة من جانب معين مختلف عن الآخر. أمّا بالنسبة لـ"مدام لافرانس"؛ فقد استوحت اسم هذه الشخصية من فرنسا التي كانت تمثل دورا أساسيا في تاريخ الجزائر؛ إذ أنها هي البلد المستعمِر. و عن طريق هاتين الشخصيتين الأساسيتين، أرادت الساردة أن تبسط لنا التاريخ الذي هي بصدد روايته لنا.

يرى "ريكور" في ثلاثيته أن الزمن لا يكون إنسانياً إلا إذا حُدِّث عنه بطريقة روائية، إذ أن الزمن يتضمنه الفعل الذي لا يُعَبر عنه إلا عن طريق الحكي. لأنّ الرواية تجعل من الزمن المحدث عنه زمنا إنسانيا بحت.

« Le temps ne devient humain que lorsqu'il est articulé de façon narrative »[60].

و هذا ما قامت به الساردة في روايتها، فهي لجأت إلى السرد و خصائصه لتنقل لنا الأحداث التاريخية حتى يتمكن القرّاء من عيشها مرة أخرى و لكن بطريقة مختلفة.

---

[59] -P . Ricoeur, *Histoire et vérité*, édition Seuil, 1955. P31.

"ما يحاول التاريخ شرحه و فهمه في المقام الأخير هم الأشخاص. الماضي الذي ابتعدنا عنه، الذي هو ماضي إنساني." ترجمة شخصية.

[60] -L.Pareydt, paul Ricoeur.l'avenir de la mémoire, in Etudes, février 1993,p.225

"الزمن لا يصبح إنساني إلاّ إذا عُبِّر عنه بطريقة سردية." ترجمة شخصية.

كتاب:" La mémoire, l’histoire, l’oubli " لـ"ريكور"، يحتوي على ثلاثة أجزاء مختلفة تتحدث عن الذاكرة، كتابة التاريخ و النسيان. فيقول أن التاريخ ليس أوسع من الذاكرة ولكن توقيتهما جد مختلف. و يذكر أيضا أنه حتى و إن كان التاريخ هو وحده القادر على تكميل، تصحيح، توسيع شواهد الذاكرة فهو لا يستطيع محوها بالكامل إذ أن الذاكرة هي صانعة ماضي الماضي. و يقول أيضا في كتابه:

« Je reste troublé par l’inquiétant spectacle que donnent le trop de mémoire ici, le trop d’oubli ailleurs.»[61].

أي يصرح "ريكور" أنه مضطرب من كثرة الذاكرة و كثرة النسيان اللذان يساهمان في صناعة الحدث التاريخي إلّا أننا لا يمكننا الاستغناء عنهما و خاصة عند كتابة الرواية التاريخية.

يرى أيضا أننا نستطيع التقرب من التاريخ و معرفة حقيقة ما قد حدث بالفعل بالتقرب من الأشخاص الذين مازالوا على قيد الحياة، المشاركين في الحدث التاريخي؛ الذين سينقلون لنا ما تحتوي ذاكرتهم من ذكريات و مشاهد مختلفة .و لكن بصفة عامة، ما يجعل المؤرخ مرجعا لمعرفة التاريخ هو إطّلاعاته على الوثائق التاريخية، فـ"ريكور" يقول:

« L’écriture de l’histoire repose sur la consultation de documents sélectionnés par le biais d’un archivage que se veut potentiellement partisan »[62].

فالمؤرخ عليه أن يفسر الوثائق التاريخية لإظهار الماضي بطريقة منظمة واضحة وعلمية، و رغم أن هذه العملية تقام بطريقة علمية فهذا لا يمنع أن توجد بعض الإبتكارية، فكما يقول "ريكور", إنها تتطرق للخيال.

[61] -P-Ricoeur, la mémoire, l’histoire, l’oubli. Paris ,seuil 2000.P681.

"أنا مضطرب نتيجة للعرض الذي تقدمه كثرة الذاكرة و كثرة النسيان." ترجمة شخصية.

[62] نفسه. "كتابة التاريخ تتركز على مراجعة الوثائق المختارة بمساعدة نظام مؤيد للعملية." ترجمة شخصية.

« Le caractère imaginaire des activités qui médiatisent et schématisent la trace s'atteste dans le travail de pensée qui accompagne l'interprétation d'un reste, d'un fossile, d'une ruine, d'une pièce de musée, d'un monument : on leur assigne leur valeur de trace, c'est-à-dire d'effet signe, qu'en se figurant le contexte de vie.»[63].

فالطابع الخيالي الذي تتسم به الوثائق التاريخية بالنسبة للمؤرخين هو يرافق تفسير كل ما تبقى من التاريخ (بقايا، عظام، قطع من المتحف، آثار) و ذلك بدمجهم في إطار اجتماعي و ثقافي لأنهم بقايا شيء ثمين (الذي هو التاريخ فيجب إعطاءهم الحياة)، فمن هنا نستطيع قول أن عملية كتابة التاريخ هي عملية أدبية تشبه تماما عملية كتابة الروايات و ذلك عبر إدماج التاريخ.

من خلال ما وجدناه في هذا المبحث، و بعد ما درسنا النقاط الهامة بالنسبة للمنظرين، نستخلص أن الساردة قد احترمت العناصر التي تعطي طابع تاريخي لروايتها، فقد تطرقت في روايتها إلى الأحداث التاريخية حسب ترتيب زمني معين (من بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى غاية الحصول على الاستقلال)، و استعملت أيضا المقاطع المرجعية لإعطاء مصداقية أكثر لروايتها، و أدخلت على نصها الطابع الخيالي، من خلال الشخصيتين "مدام لافرانس" و الطفل. فقد عكست آلام و معاناة الجزائريين من جهة، و أظهرت وحشية الاستعمار الفرنسي من جهة أخرى.

[63] نفسه. "العامل التخيلي للتمرينات التي تتوسط و تخطط الأثر؛ يظهر في الأعمال الفكرية التي ترافق شرح البقايا، العظام، الآثار، قطع من المتحف، أو مقام؛ فنعطيها قيمة أثر، أي تأثير الرمز الذي يظهر في الحياة." ترجمة شخصية.

المبحث السادس: الموازنة بين الروائي و التاريخي

في مبحثا هذا سنحاول استخراج كيف عالجت الساردة الرواية التاريخية بطريقة فنية، بعبارة أخرى، ماهي الأحداث التاريخية التي ركزت عليها، كيف ذكرتها و ماذا أهملت من التاريخ .و لماذا؟

إن ما يميز الرواية التاريخية أنها تنطلق نحو متلق واع بمجرياتها العامة مدرك لحيثياتها التاريخية، ولن تكون سلطة الأحداث وجماليات الكتابة آسرة للمتلقي كما هي الحال في الرواية عامة، بل سيكون متحررا منها مقبلا على مراقبة آلية الحدث وبلورته وسيكون متابعا لإضافات الروائي التي يجب ألا تكون على حساب المدّ التاريخي ومصداقيته، أو على حساب نفسها، ومن ثم ستغيب المصداقية الفنية، لأن الرواية ليست إعادة كتابة للتاريخ وإلا أصبحت تاريخا، إنها طريقة أخرى لاستيعابه وإعادة عرضه تمهيدا لاستثماره ممزوجا بتوضيحات واستكمالات يفترض أنها غُيبت عنه.

تتنازع الرواية التاريخية مرجعيتان، الأولى حقيقية متصلة بالحدث التاريخي، والثانية مرجعية تخييلية مقترنة بالحدث الروائي، وتلبية المرجعية الأولى يعني تحقيق المصداقية الوثائقية وتنفيذ متطلبات معينة.

المرجعية الثانية تعني تحقيق المصداقية الفنية، ولعل اجتماع المصداقيتين هو مطلب الرواية التاريخية الأول، وحتى يكون ذلك فلا بدّ للمعلومة التاريخية من طريق آمن تعبر منه إلى عمق الرواية، فكيف يستثمر الكتّاب الأحداث التاريخية؟ أي ما هي الطرق المتبعة في عرض المعلومة التاريخية المستعارة لغاية إبداعية تأويلية؟

ليس المهم في الرواية التاريخية إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ التخييلي للناس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما

في الواقع التاريخي[64] كما أن على الرواية التاريخية أن تحدد في الماضي الأسباب التي كانت وراء ما حدث بعد ذلك، وأيضا رسم السيرورة التي تطورت بشكل بطيء من خلالها وأحدثت هذا الواقع. [65]

فالرواية التاريخية لون يتنازعه هاجسان، الأول: القضية المعالجة (المادة التاريخية) والثاني (الأداء الفني) ولعل تغليب أحدهما على الآخر هو تغليب للعمل على نفسه.

تحدد الساردة في بداية روايتها تاريخ اليوم التي استهلت به روايتها و الموافق للثاني و العشرين من ذو الحجة للسنة 1245 المصادف للرابع عشر جوان من عام 1830. فهو اليوم الذي رأى فيه الطفل السفن الواقفة على شاطئ البحر و التي كانت تتأهب للدخول للمدينة البيضاء (الجزائر).

« En ce matin du vingt-deux Dhou el Hidja de l'année mille deux cent quarante-cinq, correspondant au quatorze juin de l'an mil huit cent trente du calendrier grégorien, les canons ne sont pas encore armés. »[66]

أما في الصفحة السابعة عشر، أعادت الساردة ذكر تاريخ ذلك اليوم الذي وصل فيه الاستعمار للجزائر لتدل على أنه تاريخ يصعب نسيانه فهي تقول أن الأسطول الفرنسي انطلق من "تولون " (Toulon) يوم 25 ماي نحو الأرض المجهولة، أين وصل يوم 14 جوان 1830، و هي تقول أن هذه الأرض هي الجزائر (أمريكا الجديدة الواسعة) حيث أن سكانها هو شعب جبان، بدائي، ضعيف جدا.

« En ce matin du quatorze juin mil huit cent trente, la flotte française, partie de Toulon le vingt-cinq mai, aborde une terre inconnue. Cette terre, c'est

---

(64)– جورج لوكاش، الرواية التاريخية، ص 46

(65)– امبيرتوإيكو: حاشية على اسم الوردة آليات الكتابة، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد.–www.said-Yaktin.com/eco.htm

66 الرواية ص11."في صباح الثاني و العشرون من ذي الحجة سنة 1245 الموافق لـ 14 جوان 1830 حسب التقويم الغريغوري، الجنود ليسوا مسلحين بعد." ترجمة شخصية.

l'Algérie, une vaste et nouvelle Amérique, peuplée, leur a-t-on dit, de moustiques mal armés, inconstant, lâches et malpropres. »[67]

كما قامت الساردة في الفصل الرابع باختزال الزمن، حيث أنها أشارت أنه مضى وقت طويل منذ دخول فرنسا للجزائر (عشرون سنة)، و أن فرنسا حافظت على نفس الخطة المتمثلة في الإبادة الجماعية لكل من يريد مقاومتها.

« Voilà plus que vingt ans que madame Lafrance ne cesse d'envoyer ses troupes de fantassins et de cavaliers, de territoire en territoire, pour mater des révoltes sanglantes et traquer les responsables de ces insurrections- des hommes- , ô scandale, obstinés dans leur refus de soumission. Partout s'allument des feux qui embrasent des régions entières, des feux qui se propagent et que chefs et soldats ont bien du mal à éteindre.»[68]

فقد أرسلت قواتها إلى كل مناطق الجزائر لردع من يفكر في التصدي لها.

في الفصل الخامس، ذكرت الساردة تاريخ الإبادة التي عاشها الطفل، فقد كان يوما من شهر جوان سنة 1845، يرى الموت بعينيه قادما ، كان صاخبا، مدوياً بالأسلحة.

« Un jour de juin- juin est décidément propice aux conquérants- de l'an mil huit cent quarante-cinq, dans le fracas des armes et le tumulte des mêlées, la mort est venue, richement harnachée […]. C'est ainsi que l'enfant l'a vu arriver. »[69]

---

[67] الرواية ص18/17. "في صباح 14 جوان 1830، الأسطول الفرنسي الذي انطلق من تولون في 25 ماي قد وصل إلى الأرض المجهولة. تلك الأرض هي الجزائر، أمريكا الجديدة و الواسعة، ذات الشعب غير مسلح، غير ثابت، جبان و بدائي حسب ما قد قيل لهم." ترجمة شخصية.

[68] الرواية ص 23. "إنها أكثر من عشرون سنة و مدام لافرانس لا تزال ترسل جنودها و فرسانها من منطقة إلى أخرى لكبح المقاومات المسلحة و ملاحقة المسؤولين عن هذه الانقلابات . الرجال . يا للعار، إنهم عنيدين في رفضهم للاستسلام. في كل مكان تشتعل النيران التي تلهب جميع المناطق ، التي تنتشر بسرعة، و التي يجد المسؤولين و الضباط صعوبة في إخمادها." ترجمة شخصية.

[69] الرواية ص 28. "في يوم من شهر جوان . شهر جوان هو مؤيد لمشاريع المحتلين . لسنة 1845، في صخب و ضجة الأسلحة، الموت قادم؛ بطريقة جد ساخرة. فقد رآه الطفل هكذا." ترجمة شخصية.

في الفصل العاشر، نجد أن الساردة قد قامت بإظهار معلومات تاريخية بطريقة غير مباشرة، فذكرت كيف قام العدو الفرنسي بإجبار والد الطفل على المشاركة في الحرب ضد العدو (الحرب العالمية الأولى)، و كيف ذهب الوالد الذي لم يلبث طويلا هناك وجاء خبر وفاته.

فنلاحظ هنا أن الفترة الموجودة بين 1845 و 1918 هي فترة تاريخية طويلة، قد سكتت عنها الساردة و لم تذكر ما حدث فيها تاريخيا.

ذكرت الساردة في الفصل الخامس عشر تاريخ ماي 1931 الذي احتفلت فيه بالنصر وذلك بمناسبة مرور مئة عام على احتلالها للجزائر، فأقامت معرضا كبير، فهي تستحق هذا النصر، و تريد إعطاء مكانة جديدة لها، فقد عرفت الكثير من الصعوبات للوصول لما هي عليه الآن (و خاصة أنه قد مات الآلاف من الفرنسيين إلى حد الآن). فقامت بتسمية معرضها « Vivante apothéose de l’expansion » "تمجيد كبير عن التوسع"، فمن خلاله هي تعبر عن ما وصلت إليه بعد مرور مئة سنة من الاحتلال.

« En cette journée radieuse de mai mille neuf cent trente et un, elle est saluée par les milliers de visiteurs qui se pressent aux portes en attendant l’ouverture officielle de la Grande Exposition coloniale, « vivant apothéose de l’expansion », selon la belle expression de l’un de ses savants »[70].

ثم قامت أولا بتقديم جيشها الذي بفضله وصلت فرنسا لتحقيق هدفها و الكل كان حاضرا في هذا الحفل البهيج، فقد جاء الناس من جميع أقطار الأرض، من آسيا، من أستراليا، من إفريقيا.

[70] الرواية ص85. "في هذا اليوم المشرق من شهر ماي 1931، يقوم بتحية مدام لافرانس الآلاف من الزائرين الذين يتسابقون إلى الباب في انتظار الافتتاح الرسمي للمعرض الاستعماري "تمجيد كبير عن التوسع" حسب ما وصفه أحد أعلامها." ترجمة شخصية.

في الفصل السادس عشر، قامت الساردة بذكر التاريخ عندما نقلت الخطاب الذي جرى بين "ألبير كامو" و صديقه فقال الكاتب: "هل تتذكر ما كتبته قبل 6 سنوات عندما كنت في بلاد القبائل سنة 1939؟" أي تلمح لنا الساردة أن في هذا الفصل تتطرق للأحداث التي جرت سنة 1945. و في وصفها للمشهد الحواري بين الصديقين، تحدثت الساردة عن الأحداث التاريخية قائلة: "لن ينسى أحدا هذا التاريخ من الثامن ماي 1945، اليوم الذي مات فيه الملايين من الرجال الذين خرجوا للاحتفال بالنصر".

« Ce jour même où des millions d'hommes fêtaient la victoire sur la barbarie fut aussi le jour où, pour la première fois, le drapeau algérien a été brandi et aussitôt éclaboussé du sang d'un jeune arabe.»[71]

فهنا تتحدث الساردة عن الأحداث الأليمة التي عرفتها المدن الجزائرية، سطيف، قالمة وخراطة، فتلك المجازر قد خلفت 45 ألف شهيد .

في الفصل التاسع عشر، تحدثت الساردة عن الأحداث التي وقعت في شهر ماي سنة 1957 في مدينة "الملوزة" (Melouza)، حيث قالت أنه لم يبق رجل حي في تلك القرية، الكل كان ميت، و تقول أن هؤلاء الرجال الموتى كانوا يتكلمون نفس لغة الذين قتلوهم، كانوا يعبدون نفس الإله، كانوا يعيشون معا تحت رحمة المستعمر، في البؤس و الشقاء ...

« Semblables. Ils étaient semblables. Ils baissaient pareillement leur tête sous le joug de la misère. Ils parlaient la même langue. Ils priaient le même Dieu. Pareillement, leurs femmes serraient leurs enfants dans leurs bras pour les

[71] الرواية ص95. "في هذا اليوم أين احتفل ملايين الرجال بالنصر على البربرية، هو اليوم الذي رفرف فيه العلم الجزائري و الذي لُطّخ بدم شاب عربي." ترجمة شخصية.

protéger des déluges de feu qui de temps à autre s'abattaient sur les douars. »[72]

و تواصل الساردة قائلة أنه في الليل (المساء)، ظهر بعض الرجال قائلين، لقد قتلنا الخائنين، نحن لدينا عدو واحد فقط الذي يجبرنا على العيش في البؤس و الخوف والذي يتعامل مع عدونا أيضا، الثورة تتقدم، لن يوقفها شيئا. من خلال هذا المقطع، تظهر لنا الساردة أنه كان يوجد بعض الجزائريين الذين خانوا وطنهم و استسلموا للاستعمار، بل وأصبحوا حلفاءهم، يأتونهم بالأخبار عن المجاهدين، عن مخابئهم، عن تحركاتهم، و لكن بعد أن اكتشفهم الجزائريين قاموا بقتلهم جميعا لأنهم لن يقبلوا أبدا أن يعيش الخائنين بينهم حتى و لو كانوا يتكلمون نفس اللغة و لهم نفس الديانة. هي مجزرة وقعت سنة 1957 إبان الثورة الجزائرية في منطقة "ملوزة" والتي تسمى اليوم "بني يلمان "شمال غرب ولاية "المسيلة" والتي راح ضحيتها 357 قتيلا تمت تصفيتهم رميا بالرصاص.

و في الفصل الواحد و العشرين، ذكرت الساردة تاريخ نوفمبر 1954 أين بدأت الأحداث الأليمة بالنسبة للفرنسيين، إذ أن الجزائريين صعدوا إلى الجبال و اتخذوا منها مقرا لهم، حيث بدأوا بإعداد الكمائن و الاختفاء في الأماكن التي يعرفونها جيدا.

« Plus d'un siècle après, à partir de novembre mille neuf cent cinquante-quatre, face à une nouvelle insurrection, le problème se repose. En d'autres termes

Depuis le début des « événements », les rebelles sont insaisissables. Ils ont pris le maquis. Ils vivent dans des djebels, organisent des embuscades et se replient dans des lieux qu'ils connaissent bien. »[73]

---

[72] الرواية ص 107. "متشابهين جميعا، كانوا يطأطئون جميعا رأسهم تحت حكم المأساة. كانوا يتحدثون نفس اللغة، لهم نفس الديانة، كانت نساءهم تحضن أطفالها بين ذراعيها لتحميهم من الطلقات التي كانت تمطر على الدوّار بين الحين و الآخر." ترجمة شخصية.

[73] الرواية ص 125."لأكثر من قرن، انطلاقا من نوفمبر 1954، أصبحت هناك ثورة جديدة. أي أن منذ بداية الأحداث، المتمردين أصبحوا خارجين عن السيطرة. فهم يعيشون في الجبال، يُعِدون الكمائن و يختبئون في الأماكن التي يعرفونها جيدا." ترجمة شخصية.

نلاحظ أنّ الفصل الثالث و العشرين هو فصل يتحدث عن ما وقع تاريخيا، فهو وثيقة عما حصل في السنوات الأخيرة من الاستعمار حيث أنه لا يوجد و لا عنصر خيالي، فالساردة تحدثت عن نشأة الجيش السري. فبداية؛ رفض بعض عناصر الجيش الفرنسي مواصلة تقتيل و إبادة الجزائريين، فلم يسمح لهم ضميرهم بالمشاركة في القوات المسلحة في الجزائر، فبالنسبة للجيش هم عبارة عن خائنين و هؤلاء الذين انسحبوا من الجيش الفرنسي قاموا بتشكيل الجيش السري.

و يوجد من الجهة الأخرى الجنود الديمقراطيين الذين يقومون على تطبيق ما جاء في اتفاقيات أيفيان، فهم يواصلون خدمة فرنسا. فشبح الجزائر المستقلة بدأ يهدد أحلام، بل أوهام رجال و نساء اعتقدوا لسنوات طويلة بديمومة الجزائر الفرنسية.

« Le spectre d'un « état algérien souverain » hante les rêves des hommes et des femmes qui ont toujours cru à l'éternité d'une Algérie française, et qui veulent encore y croire. Ils crient chaque jour leur colère à la face de madame Lafrance. »[74]

ثم تطرقت الساردة للحديث عن شارل ديغول، فذكرت أنه كان بطل المقاومة الفرنسية، فهو من تجرأ و قال في الأخير "الجزائر بلد المستقبل"، فقد استسلم في الأخير بعدما قاوم لسنوات عديدة، و قال جملته الشهيرة، "لقد فهمتكم"، و لكن فرنسيي الجزائر لم يريدوا أن يؤمنوا بما قاله ديغول، فهم لم ينتخبو على شيء. فقد كانوا يتظاهرون ليلا نهارا في الشوارع مطالبين بوجود الجزائر الفرنسية، و لم يريدو الاستسلام و لو لثواني. و قد كانت هناك هجومات متكررة عليهم التي خلفت الكثير من الموتى و الجرحى، فقد ذهبت أيام "مدام لافرانس"، فهي لم تعد تعرف هذا البلد و لا هذا الشعب، و تشم رائحة

[74] الرواية ص138. "شبح الوطن الجزائري السمي و الحر أصبح يسكن و يهدد أحلام الرجال و النساء الذين اعتقدوا دوما في ديمومة الجزائر الفرنسية. فهم يعبرون عن غيظهم و قلقهم لمدام لافرانس." ترجمة شخصية.

الخوف و الكره أين ما ذهبت، فعليها الآن نسيان تلك الأيام التي طالبت فيها بالأخوة بين الجزائريين و الفرنسيين.

« Madame Lafrance ne se reconnaît plus en ces lieux. Lus murs semblent suinter une odeur de peur et de haine. Oubliées, les folles journées de la fraternisation factice! »[75]

و تحدثت الساردة في نفس الفصل عن الهجومات المنظمة من قبل OAS التي من خلالها أصبحت الطرقات مليئة بالدماء و الروائح الكريهة المنبثقة عن الجثث المتراكمة. و الجدران كانت مليئة بالشعارات : OAS ستنتصر، أيها الشعب إلى السلاح. فهذه المنظمة السرية كانت تهجم وقت ما شاءت، أين ما شاءت و على من شاءت لقد أحرقت مكتبة الجامعة، الثكنات العسكرية، المستشفيات، المدارس، البلديات، المحلات، فكل ما قد قامت فرنسا بإنشائه يجب أن يدمر.

« L'OAS frappe où elle veut. Qui elle veut. Quand elle veut. […]Mitraillés, les casernes et les commissariats ! Exécutés, les libéraux, les avocats, les instituteurs, tous les non sympathisant de la cause ! Plastiqués, les locaux d'habitation et les bâtiments publiques : les hôpitaux, les écoles, mairies, les postes, les magasins, les services administratifs ! L'œuvre de la France ne doit pas lui survivre! »[76]

فتذكر لنا الساردة كيف قامت OAS بتدمير كل شيء و حرق و قتل الجميع بدون استثناء و أنها هددت بنقل الحرب إلى العاصمة الفرنسية بباريس. إذن أيام فرنسا أصبحت معدودة في الجزائر.

---

[75] الرواية ص 139."مدام لافرانس لم تعد تعرف هذه الأماكن، فالجدران أصبحت و كأنها تصدر رائحة الخوف و الكره. فقد مضت الأيام التي حلموا فيها بالأخوة بين الفرنسيين و الجزائريين." ترجمة شخصية.

[76] الرواية ص142. "L'OAS تهجم أينما أرادت، و من تريد و حين تريد، فقد أُطلقت النار على الثكنات، الأحرار، المحامين، المعلمين، كلهم مضطهدين! فقد دُمرت المباني، المستشفيات، المدارس، البلديات، مصالح البريد، المحلات و المصالح الإدارية! فما أنتجته فرنسا لا يجب أن يدوم." ترجمة شخصية.

« L’honneur de madame Lafrance, en ses symboles les plus sacrés, est foulé aux pieds. Madame Lafrance sait désormais qu’ici, ses jours sont comptés. »[77]

من خلال تحليلنا لهذا المبحث نتوصل إلى أن الساردة قد قامت بذكر التواريخ الأساسية، إذ بدأت روايتها بذكر تاريخ دخول فرنسا إلى الأراضي الجزائرية، ثم تحدثت عن أبرز الأحداث التي عرفها التاريخ الجزائري إبان الثورة التحريرية؛ نذكر منها أحداث 8 ماي 1945، أول نوفمبر و غيرها. فمنه نتوصل إلى أن الساردة قد قامت بدمج أحداث نصها التخيلي في الزمن التاريخي؛ و ذلك للحصول على الزمن الروائي، فهي أعادت تسطير التاريخ وفق ترتيب زمني معين (من بداية دخول الفرنسيين إلى الجزائر)؛ أي من بداية الاستعمار الفرنسي حتى الحصول على الاستقلال، و ذلك من خلال تسليط الضوء على معاناة الشعب الجزائري، و وحشية السياسة الاستعمارية.

و لعل إهمالها لذكر الأحداث التاريخية الأخرى، يرجع إلى كثرتها، فخلال 132 سنة كان تاريخ الجزائر حافلا بمختلف الأحداث، و لا يُعقل ذكرها كلها في النص الروائي، وربما كان لذلك أيضا غايات إيديولوجية معينة.

[77] الرواية ص142. "شرف مدام لافرانس، في رموزها المقدسة، قد دُسّ عليه بالأرجل. فمدام لافرانس تعلم أنها هنا لأيام معدودة فقط." ترجمة شخصية.

الفصل الثانـي:

مباحث الصورة

المبحث الأول : دراسة الصورة الأدبية

في روايتنا التي سنقوم بدراستها، نلاحظ أنّ الساردة قد لجأت في العديد من المرات إلى التمثيلات أي بمعنى آخر إلى استعمال الصورة الأدبية. سنحاول في البداية تقديم مفهوم عام عن الصورة و علاقتها بالأدب و الرواية ثم سنقوم بتحليل الرواية لدراسة الصورة الأدبية فيها.

تعد دراسة الصورة الأدبية (أو الصورولوجيا: Imagologie) أحد فروع الأدب المقارن، وهي تحتاج مثله إلى أدوات النقد من معرفة بالعلوم الإنسانية (التاريخ، علم الاجتماع، علم النفس...) و المناهج النقدية الحديثة، كما تحتاج إلى مؤهلات تساعد على تلمس الجمال.

فبدايات هذا الفرع من فروع الأدب المقارن ترجع للنصف الأول من القرن التاسع عشر حين قامت الأديبة الفرنسية (Madame de Staël) "مدام دوستال" بزيارة طويلة لألمانيا، و ذلك في وقت تصاعد فيه العداء و سوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني، و أثناء الإقامة فوجئت الأديبة بمدى سوء الفهم و الجهل الذي يعاني منه الفرنسيون لألمانيا رغم الجوار الجغرافي، فقد رسم الفرنسيون في أذهانهم صورة لشعب فظ غير متحضر، يتكلم لغة غير جميلة ليس له أي إنجازات تُذكر سواء كانت أدبية أم ثقافية، و هكذا قامت "مدام دوستال" بكتابة كتابها "ألمانيا" حيث فيه سعت إلى تصحيح ما في أذهان الفرنسيين من صور مشوهة عن الألمان و بلادهم و ثقافتهم، فالكتاب يعد بداية دراسة الصورولوجويا (L'imagologie)، و هذا النوع من الدراسات كان وافرا لدى الغرب على خلاف ما كان موجودا عند العرب، خصوصا بعد أن قدمت "سليفان مارادون" كتابها (L'image de la France dans l'Angleterre victorienne) صورة فرنسا في إنجلترا الفيكتورية، و هي في عملها هذا تبرز كيف أن الشعب يحمل صورة عن شعب دون آخر للاهتمام به.

فكما يقول عبد المجيد حنون:"لعل السبب في ذلك يعود إلى أن الإنسان لا يهتم بكل الناس، و إنما بأقربهم بحكم الجوار و القرابة، أو الزمالة، أو التعامل التجاري، أو أي شكل من العلاقات"[78].

و الجامعات الغربية حافلة بهذا النوع من الدراسات و خاصة الجامعات الفرنسية (قصد الوقوف على موقف الحضارات بعضها من بعض) باعتبارها مهد الأدب المقارن، فغي ميشو له فضل تسمية هذه الدراسات بعيون الصورة، و ينسبها إلى الأدب المقارن فيقول في هذا الصدد: "ليس من المبالغة التركيز على هذا النوع من الأدب المقارن الذي يسمى علم الصورة و الذي يدرس من خلال الوثائق المكتوبة تقديم الشعوب لبعضها البعض"[79]. و يشاطره الرأي نفسه "كلود بيشوا" Claude Pichois و "أندري روسو" و "سيمون جون"، غير أن هذا يؤكد شرط التأثير و التأثر في الأدب المقارن، يقول: "التأثير الذي سنتحدث عنه مختلف رغم وقوعه دوما في الأدباء فقط، فإنه ليس من نفس النوع، فلم يعد ثمة عمل أدبي يحدث تأثيرا، بل شعب بأكمله، البلد كله يحدث التأثر، و أدباء شعب آخر يتلقون الصورة أو الظل"[80].

فقد إتُفِق على التسمية نفسها (علم الصورة) نسبة إلى الأدب المقارن و لكن أكد جميع الدارسين للأدب المقارن على شرط التأثير الذي يعتبر عماد الدراسات النقدية، غير أن الاختلاف كان حول مفهوم الصورة أو تعريفها فكل يراها من منظاره.

---

[78] عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.1984

[79] عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، مرجع سابق.

[80] المرجع نفسه.

المبحث الثاني: مفهوم علم الصورة

سنقدم في مبحثنا هذا بعض المفاهيم الذي قُدّمت حول علم الصورة، و ذلك بالرجوع إلى أبرز العلماء المختصين في هذا المجال.

الباحث "لهجومري عبد الجليل" في كتابه (صورة المغرب في الأدب الفرنسي) يعرف الصورة "أنها حصر للمشاكل و الاختلافات الحقيقية في إطار ضيق جدا، و الصورة عنده هي ملتقى الحضارات و الثقافات و تصور الجماعات بعضها لبعض"[81].

و الصورة عند "سلفان مارادون" هي: "كل ما في الذهن حول ذلك الشعب [...] و هي تمثيل يعتمد على معلومات شبه ثابتة ذات طابع عام و معقول و لها شيء من الواقع المحسوس"[82].

أما "كلود بيشوا" و "روسو" فيريان أن الصورة: "تصور فردي أو جماعي تدخل فيه عوامل ثقافية و شعورية موضوعية و ذاتية"[83].

" عبد المجيد حنون " لم يستقر على تصور واحد لمفهوم الصورة، فالصورة عنده تعني تمثيلا معقولا و أمينا، و يرى أنه إذا اعتبرنا أن الصورة هي كل ما يتصوره شعب عن شعب آخر، فإننا سنقع في مشكلة تحديد هذا الكل إن كان صادقا أو مخطئا، من أين يبدأ و أين نهايته، و هل هو حقيقي أو مشوب بالخيال؟ و يحاول أن يكون أكثر تدقيقا فيقول: "إن الصورة لا تطابق الواقع الحقيقي و ليست شديدة القرب منه و لكنها ليست مختلفة عنه تمام الاختلاف، إنها رؤية معقولة لشعب عند شعب آخر تعتمد على عوامل عقلية و أخرى مادية موضوعية و ذاتية"[84].

---

[81] Lahjounri Abdeldjalil, *l'image du Maroc dans la littérature française*, S.N.E.D, Alger 1973.

[82] عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، مرجع سابق.

[83] المرجع نفسه.

[84] المرجع نفسه.

و يؤكد أن كلمة تصور هي الأدق في الدلالة إذا ما أردنا تعريف الصورة، لأن تصورها لا يعني مطابقته للواقع و ليس الاختلاف عنه فهو: "تصور شعب بعينه لشعب بذاته"[85].

أما "جان مارك مورا " (Jean Marc Moura) فيعرف الصورولوجيا في القاموس العالمي للمفاهيم الأدبية كالتالي:

"Ensemble des travaux de littérature comparée consacrés aux représentations de l'étranger. L'imagologie a deux objets d'étude privilégiés: les récits de voyages et les ouvrages de fiction mettant l'étranger en scène"[86].

أي نجدها بالأخص في روايات أدب الرحلات و الروايات التي تهتم في جوهرها بدراسة الآخر.

و لتفادي كثرة المفاهيم المنسوبة لمختلف النقاد، سنتقيد بما قال "دانييل هنري باجو" (Daniel Henri Pageaux)، فهو يرى أن علم الصورة يشكل ملتقى العلوم الأخرى، فهو يكتب بهذا الشأن:

"L'imagologie mène le chercheur à des carrefours problématiques où la littérature côtoie, l'histoire, la sociologie l'anthropologie, entre autres sciences humaines, et où l'image tend à être un révélateur particulièrement éclairant des fonctionnement d'une idéologie […] et plus encore d'un imaginaire social"[87].

---

[85] المرجع نفسه.

[86] Dictionnaire International des termes littéraire par J.M Houra, article: "Imagologie", limoges, 1999.

"هي مجموعة الأعمال المنتمية إلى الأدب المقارن المختصة في تمثلات الآخر. علم الصورة يدرس موضوعين أساسيين بالخصوص: أدب الرحلات و الروايات التي تهتم في جوهرها بدراسة الآخر.". ترجمة شخصية.

[87] Daniel Henri Pageaux. «De l'imagerie culturelle à l'imaginaire», in Pierre Brunel, Yves Chevrel,éds.– Précis de littérature comparée.– Paris : P.U.F., 1989

"علم الصورة يؤدي بالباحث إلى الإشكالية أين نجد الأدب يجاور التاريخ، علم الاجتماع، الأنتروبولوجيا؛ أي العلوم الإنسانية. فالصورة تقوم بتوضيح الإيديولوجيا [...] و أيضا متخيلات مجتمع معين." ترجمة شخصية.

بمعنى أن علم دراسة الصورة هو علم يجاور فيه الأدب مختلف العلوم الأخرى كالتاريخ، السوسيولوجيا، الأنتربولوجيا، كل ما يهتم بالعلوم الإنسانية، حيث تقوم الصورة بتوضيح الإيديولوجيات في النص المراد دراسته و طموحات (خيالات) مجتمع ما.

و يرى "باجو":

"L'imagologie a entre autres tâches celle de décrypter les lignes de forces qui régissent une culture, ainsi que les rapports entre deux ou plusieurs cultures. Enfin révéler les systèmes de valeur sur lesquels peuvent se fonder les mécanismes de la représentation"[88].

فدور الصورولوجيا هو دراسة الأبعاد و النظم الإيديولوجية التي تنتظم فيها الغيرية في دراسة خطابات الآخر.

و يعد مفهوم الصورة من ألصق المفاهيم بمفهوم الغيرية "Altérité" كما يعبر عن ذلك "باجو": "كل صورة تنبثق عن إحساس مهما كان ضئيلا بـ "الأنا" بالمقارنة مع "الآخر" و بـ "هنا" بالمقارنة مع مكان آخر"[89]، و هو ما يجعلها لا تروم ضبط ماهية الغير فحسب، بل في سعيها هذا هي حاملة لا ريب لتمثلات الذات لنفسها، فهي واعية بالذات و بالغير في الوقت نفسه، ف" باجو" يرى:

"Toute image procède d'une prise de conscience, si minime soit-elle, d'un Je par rapport à l'autre, d'un Ici par rapport à un Ailleurs"[90].

و يرى أيضا:

"L'image est donc l'expression, littéraire ou non, d'un écart significatif entre deux ordres de réalité culturelle. Ainsi conçue, l'image littéraire est un

---

[88] نفسه ."من بين أهداف علم الصورة، هي تساعد على كشف نقاط القوة لثقافة معينة و استخراج العلاقة المشكلة بين ثقافتين. و بالتالي تقديم نظام القيم التي تبنى عليه آليات التمثلات." ترجمة شخصية.

[89] نفسه.

[90] نفسه. "كل صورة تنطلق من نقطة وعي مهما كانت صغيرة للأنا بالنسبة للآخر، و هنا بالنسبة للغير." ترجمة شخصية.

ensemble d'idées et de sentiments sur l'étranger pris dans un processus de littérarisation aussi de socialisation"[91].

و باعتبارها أيضا تمثّلا "représentation" فإن عناصرها الحاضرة في الفكر تقوم مقام مزيج من العواطف و الأفكار المسبقة، لذلك لا يمكننا اعتبار الصورة التي نشكلّها عن "الآخر" هي "الآخر"، فكما يقول الكاتب طاهر لبيب: "بديهي أن صورة الآخر ليست هي الآخر، صورة الآخر بناء في الخيال، الصورة ليست الواقع حتّى و إن كان الصرّاع حولها من رهانات الواقع، و لأنها كذلك فهي اختراع"[92]. و ترى ماجدة محمود: "إن تقديم صورة الآخر يخضع لنوع من الخيار الفكري المختلط بالمشاعر، فلا يتمّ الانتباه إلى ما يسمح بالاختلاف (الآخر مقابل الأنا) أو التّماثل (الآخر يشبه الأنا)، فكثيرا ما يكون التعبير عن الآخر خفيا له، إذ تدرس الصورة وفق أفكار مسبقة (...) لذلك لا ينبغي علينا أن نهتم بواقعية الصورة"[93].

و لا يمكننا فصل الآخر عن التنظيم الاجتماعي لثقافته، و من هنا ارتبطت صورته بما يسمى "المتخيل الاجتماعي".

من بين أهداف الصورة الأدبية هو دراسة تمثيل الآخر في الأدب و هذا يتمثل في موقعين أساسيين: دراسة أدب الرحلات "récits de voyage" و أيضا في:

"Récits de fiction qui soit mettent en scène directement des étrangers, soit se réfèrent à une vision d'ensemble, plus ou moins stéréotypée d'un pays étranger"[94].

---

[91] نفسه. "فالصورة هي تعبير، سواء كان أدبيا أم لا، عن بون ذي مغزى بين نظامين في الواقع الثقافي. و بهذا المفهوم نجد أنّ الصورة هي مجموعة أفكار و مشاعر تجاه الآخر مشكلة في سيرورة أدبية و اجتماعية.". ترجمة شخصية.

[92] الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا و منظورا ٬ليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1999.

[93] ماجدة حمود، مقاربات في الأدب المقارن، اتحاد كتاب العرب –دمشق- سوريا، 2000.

[94] Yves Chevrel: La literature comperée, Paris, P.U.F, que sais-je, 1989.
"تتحدث النصوص الخيالية إمّا عن الآخر مباشرة أو تأخذ كمرجع لها النظرة الشاملة عنه و في بعض الأحيان المنمطة عن الشعب والبلدالآخر." ترجمة شخصية.

علم الصورة يتمثل في محورين أساسيين:

1-الربط بين الآداب l'interdisciplinarité: فهي مزيج من التاريخ، الأدب، السياسة، علم الإجتماع. فبالنسبة لمورا Moura:

"Les études imagologiques s'inscrivent dans le champ de la sociocritique, dans la mesure où elles vérifient comment telle images littéraire s'insère (ou pas) dans des ensembles de représentations plus vastes pouvant atteindre l'échelle du groupe social tout entier"[95].

2-المقابلة بين نظريات أدب جديدة: السيميائية، نظرية الاستقبال: théorie de (reception).

فيرى مورا:

"[…] Le véritable enjeu d'une étude d'image est la découverte de sa "logique", "de sa vérité", non la vérification de son adéquation à la réalité"[96].

فالهدف من دراسة علم الصورة هو اكتشاف منطقه و حقيقته و ليس التحقق من مدى تطابق الصورة مع الواقع، و حين ندرس منطق و حقيقة الصور، نقوم في نفس الوقت بالتعرف على هدفها و الهدف من دراستها و أيضا طريقة نقد الكاتب.

يرى "باجو":

"La représentation d'une réalité culturelle à travers laquelle l'individu et le groupe qui l'ont élaborée (ou qui la partagent ou qui la propagent) révèlent et traduisent l'espace idéologique et culturel dans lequel il se situe"[97].

---

[95] Jean-Marc MOURA: *L'imagologie littéraire: essai de mise au point historique et critique*. In: revue de littérature comparée, N°3, Juillet-Septembre 1992, Paris, Didier Erudition, 1992.

"دراسات علم الصورة تدخل في سياق النقد الاجتماعي أين تدرس كيف تساهم الصورة في تشكيل مجموعة التمثلات التي تضم كل أفراد المجتمع." ترجمة شخصية.

[96] نفسه. "[...] الهدف الحقيقي من دراسة الصورة هو إكتشاف منطقها، حقيقتها،و ليس التحقق من مدى ملاءمتها للواقع." ترجمة شخصية.

إذن تمثيل الواقع الثقافي يكشف عن إيديولوجية الكاتب أو مجموعة الأفراد الذين قاموا بتحديده، فهذا يؤدي إلى التعريف عن الواقع الإيديولوجي الثقافي الموجود فيه أفراد هذه المجموعة.

فالصور المنقولة في الأعمال هي نتاج إيديولوجيا الكاتب، خياله و أفكاره و لكنها لا تعبر بالضرورة عن الواقع الحقيقي، فهي تؤدي بنا إلى الخيال الفردي (للكاتب) و الخيال الاجتماعي (لأن الكاتب هو فرد من المجتمع).

و يرى "باجو" أن الصورة تتشكل في النص انطلاقا من الكلمة (المعجم)، العلاقات المقدمّة بشكل هرمي بين الأنا و الآخر، ثم السيناريو. و لكنه يأخذ دائما بعين الاعتبار الحقائق التاريخية في تكوين الصورة، فالصورة تحمل بحد ذاتها معلومات حول الانتماء الإيديولوجي و العرقي، فكما يقول"باجو":

"L'image est toujours en étroite relation avec une situation culturelle historiquement déterminée"[98].

و هنا نرى أهمية البعد الثقافي و التاريخي في تكوين الصورة بالنسبة لـ " باجو"، فعندما نقوم بتكوين صورة ما، نقوم بدمج عدة عوامل كالرؤية الجماعية (الخيالية) لمجتمع ما من جهة و إيديولوجية الكاتب من جهة أخرى.

و من هنا نستطيع القول بأن الصورة في العمل الأدبي تمثل الحقيقة الممزوجة بالخيال، التي تلبي طموحات الكاتب و أفراد مجتمعه، فهي إذن ثمرة إيديولوجيته و في بعض الأحيان تصبح سراباً لكثرة بعدها عن ما هو حقيقي.

---

[97] نفسه. "إن تمثيل واقع ثقافي الذي أسسه الفرد أو مجموعة أفراد يعكس الواقع الإيديولوجي و الثقافي الموجود فيه." ترجمة شخصية.

[98] نفسه. "الصورة هي دائما في علاقة وطيدة مع الواقع الثقافي المحدد تاريخيا." ترجمة شخصية.

و دراسة صورة الآخر هي بحث أنثروبولوجي، لأن من خلال النص الأدبي نستطيع تحليل نظام قيم "الآخر" و تعبيرات ثقافته، و هي أيضا بحث إيديولوجي و تاريخي يساعدنا بشكل أو بآخر في اكتشاف أنفسنا، يقول" باجو":

"إني أنظر إلى الآخر، و صورة الآخر تنقل أيضا نوعا من الصورة عن هذه (الأنا) التي تنظر، و تتكلم، و تكتب، من المستحيل تجنب ألاّ تبدو صورة الآخر، على مستوى فردي (كاتب) و جماعي (مجتمع أو بلد أو أمة) [...] نفيا للآخر أيضا، و تتمة وتعميقا (للأنا) و فضائها، تريد (الأنا) الحديث إلى الآخر (لأسباب ضرورية و معتقدة غالبا) و لكن في حديثها إلى الآخر، تصل إلى نفيه، و تحادث نفسها"[99].

و كما أكد "الطاهر لبيب" الصورة هي بناء في الخيال و ليست في الحقيقة تمثيلا للآخر، فأغلب الصور التي تشكلها عن الآخر هي صور نمطية تكرست في الموروث الثقافي الفكري العربي و الغربي منذ قرون، ساهمت في تكوينها ظروف تاريخية و اجتماعية وسياسية أدّت في النهاية إلى اتّساع الهوة بيننا و بين الآخر الأجنبي.

أمّا فيما يخص الصورة النمطية، فترى روث أموسي أنّ:

"Ce qui ne se modifie point, qui reste toujours le même"[100].

مما يعني أنّ الصورة النمطية هي التي لا تتغير و تبقى دائما نفسها. و تضيف قائلة أن الصورة النمطية هي:

"Croyances concernant des classes d'individus, des groupes ou des objets qui sont perçus […] un stéréotype ne se donne pas comme hypothèse

---

[99] نفسه.

[100] Ruth Amossy Herschberg, Pirrot Anne, Stéréotype et clichés, Paris.1999.
"الصورة النمطية هي التي لا تتغير و تبقى دائما نفسها." ترجمة شخصية.

confirmée par des preuves mais plutôt considérée, entièrement ou particulièrement à tort, comme un fait établi"[101].

و من هنا نستطيع القول بأن الصورة النمطية تساهم في صنع صورة الأنا و الآخر

من خلال الطرح السابق، نخلص إلى أن الصورة هي: ما يحمله شعب عن شعب آخر، بحكم أن الصورة شيء شامل جامع لكل ما قد يخطر ببال المرء عندما يتصور آخر من مشاهدات أو إشاعات أو أحكام مسبقة، أو حتى طرائف... و قد لا تكون هذه العناصر المكونة للصورة صادقة، و في آن واحد ليست بكاذبة أو خاطئة، و إنما تحمل شيئا من هذا أو ذاك، المهم أنها تصور يتجلي في شكل عملية ذهنية قد يكون صادقا كما قد يكون غير منزه عن العوامل الذاتية، إن كان الشعب المتصور يعود بالدرجة الأولى إلى ميوله و أهوائه و مصالحه و عقيدته و كل مقوماته في تصور شعب آخر، و لعل أصح هذه المقومات المعتمدة جميعا العلاقة التاريخية التي تُتَخذ كمعيار أساسي في الحكم والتصور، كدليل على ذاتية الأحكام و التصورات، إذ أن إيجابية الصورة لدى شعب عن آخر، قد تكون سلبية عند شعب آخر عن الشعب نفسه. لذلك أشير إلى أن الصورة كتصور ذهني يختلف عن ذات الشيء من شخص إلى آخر أو مجتمع إلى مجتمع آخر، تشتغل على مستويين، يمكن أن نصطلح عليهما:

1- التصور الإيهامي.

2- التصور الإفهامي.

أما الأول؛ فمجاله الأعمال الأدبية الأكثر ارتكازا على الخيال من مثل الرواية والقصة... الشيء الذي يسمح لصاحبها بالإبتعاد عن الواقع، خصوصا إذا تعلق الأمر بمصور غير منزه عن العوامل الذاتية في تصويره للآخر. بينما الثاني؛ فمجاله الأعمال الأدبية

[101] نفسه. "اعتقادات حول أفراد، جماعات أو أشياء معينة [...] الصورة النمطية هي ليست بالإحتمال؛ قابلة للتأكيد من خلال براهين، و لكنها تُعتبر، حتى و إن كانت خاطئة، حدث واقعي." ترجمة شخصية.

التي يغلب عليها الطابع الفكري و هذا كالمقال و الخطابة... لكون هذا النوع من الأدب أكثر ارتباطا بالواقع و المنطق، أي بما يقتضي الانعكاس الحقيقي للحياة.

الباحثون يهملون في الصورة إذا ما كانت حقيقية أم نمطية، إنما الذي يهمهم في دراستهم لها هو مدى دقة التصوير فيها في أدب الشعب أو الأديب الذي يدرسونه.

ففي هذه الوحدة حاولنا تقديم ما تعنيه الصورة و تبسيط مفهومها و قد قدمنا الطريقة التي من خلالها سندرس الصورة في بحثنا هذا و في تحليلنا، و قد لاحظنا أيضا مدى صعوبة دراسة الصورة الأدبية، و تجسيدها في الأعمال الروائية.

المبحث الثالث: الصورة و التمثيلات في الرواية

في روايتنا التي نروم دراستها، نلاحظ أن الساردة قد لجأت إلى تمثيلات الأدبية. فبعد أن قمنا بتعريف علم الصورة في مبحثنا السابق، سنقوم في مبحثنا هذا بدراسة التمثيلات الموجودة في الرواية، و ذلك بهدف نقل فكرة الاستعمار الفرنسي عن الجزائر قبل و بعد قدومه.

في بداية الفصل الثاني، تطرقت الساردة لوصف الاستعمار، قدومه و العتاد الذي أحضره معه، فالفرنسيون اعتبروا الجزائر أفريقيا الجديدة؛ أرض جديدة و غير مستغلة التي يعيش فيها شعب بربري. فهي تقول أن الاستعمار قد قدم لجعلها بلدا متحضرا.

« Marins, officiers et soldats se précipitent aux bastingages. Debout sur le pont recouvert de cordages et de malles remplies de fusils à baïonnette, d'arquebuses, de mousquets, de mousquetons et de munition, ils scrutent la terre, toute proche, à portée de canon »[102].

فكيف له أن يجلب الحضارة بالسلاح و عتاد الحرب. و كان جميع البحارة والضباط يراقبون هذا البلد الجديد ويطرحون في أنفسهم الأسئلة التالية:

« C'est donc cela l'Afrique ? C'est cela, leur nouvelle Amérique ? Une terre dont ils ne savant rien. Une terre profonde. Mystérieuse. Inexplorée. »[103]

من خلال هذا الوصف قامت الساردة بإظهار نوايا الاستعمار الفرنسي، وماذا كان يطمح من خلال قدومه إلى هذا البلد الجديد. هي تواصل فيما بعد وصفها قائلة أن

[102] الرواية ص 15."البحارة، الضباط و الجنود يتسارعون إلى سياج الحديد، هم واقفون فوق الجسر المغطّى بالحبال و الصناديق المملوءة بالبنادق ذات الأنواع المختلفة و بالعتاد. هم يراقبون تلك الأرض الجد قريبة منهم." ترجمة شخصية.

[103] الرواية ص15."هذه هي أفريقيا؟ هذه هي أمريكا الجديدة بالنسبة لهم؟ الأرض التي لا يعرفون عنها شيئا، العميقة، الغامضة و غير مستغلة؟". ترجمة شخصية.

المستعمِر قد وصل أخيرا إلى هذه الأرض الجديدة المسماة بأفريقيا الجديدة التي يسكنها شعب بربري بدائي، فقد قيل لهم أنها عبارة عن أرض متوحشة.

« Elle est là, enfin, cette Afrique, dite « Africa Nova » par d'autres conquérants, en d'autres temps. Une terre désolée et parcourue, selon ces mêmes conquérants, de hordes barbares à demi nue. »[104]

فهنا الساردة قامت بوصف نظرة الفرنسيين للجزائر والنوايا التي جاؤوا بها لاحتلال هذا البلد الحضاري والغني. ولكن الكاتبة تواصل قائلة بما أنه أصبح الصباح، كان السحاب يغطي التل الموجود عليه المدينة البربرية ولكنه حين تلاشى اندهش هؤلاء الرجال لما رأوه أمامهم غير مصدقين، فقد وجدوا مدينة بيضاء متكونة من منازل، مليئة بالأشجار، المساجد، فكانت أمامهم لوحة جميلة ملونة بالأخضر والأبيض. فهنا تقوم الكاتبة بإظهار مدى رُقَيّ وحضارة الجزائر في ذلك الوقت، ذلك البلد الذي اعتقدوه بربرياً، متوحشاً والذي أرادوا تطويره. من هنا نجد أن الفرنسيين لم يملكوا أدنى فكرة عما كانت عليه الجزائر قبل قدومهم لاحتلالها، فقد اعتقدوا أنها بلد بربري، متخلف و متوحش، فهذه تعكس صورة الفرنسيين الجاهلين و المقدمين على احتلال بلد لا يعرفون عنه شيئا، و في نفس الوقت تبين مدى رقي و حضارة الجزائر في تلك الفترة.

قامت الساردة باستعمال الخطاب غير المباشر حين تحدثت عن ما توقعه الاستعمار الفرنسي قبل قدومه للجزائر، فقد قيل للفرنسيين أنه لا توجد أشجار و لا نبات، هي أرض قاحلة تحت أشعة الشمس. و قيل لهم أيضا أنه بالكاد توجد بعض المنازل المتناثرة هنا و هناك التي تظهر عليها علامات القدم من جراء تأثير الشمس الحارة، الرياح القوية و الغبار.

[104] الرواية ص16. "هي هنا و أخيرا، الإفريقيا المسماة أفريقيا الجديدة من طرف المنافسين في الأوقات الماضية. أرض مكتئبة، يسكنها شعب بربري بدائي." ترجمة شخصية.

« Ils s'étonnent. On leur avait dit : ni arbre ni arbrisseaux ni herbes. Rien que de la terre nue, sous un soleil nu. Ils s'étonnent. On leur avait dit : à peine, à peine quelques habitats épars rongés par le soleil, les vents et la poussière. La citadelle est là, comme un mirage devant eux, ruisselante de lumière, avec les tours dressées de ses forts, ses palais, les flèches de ses minarets, ses ruelles pentues et ses maisons enfouies dans le désordre luxuriant de jardins encore inviolés et de vergers étagés à perte de vue. »[105]

فمن خلال هذا الخطاب نقلت لنا الكاتبة الساردة النظرة و الصورة التي جاء بها الفرنسيون للجزائر، فهي صورة جد سلبية، و كأنه لا توجد حياة في الجزائر (عدم وجود بنايات و لا حدائق و لا حياة)، مما يظهر لنا مدى جهل الفرنسيين.

في الفصل الثامن، قامت الساردة بالتطرق إلى الحديث الذي جرى بين الدكتور "بوديشون" و صديقه؛ فالرجل الأول يقول بأن الأطفال محظوظين لكوننا قدمنا لتحريرهم من حياتهم (بقعة) المتوحشة، لقد قمنا بتحويل مستنقعات قذرة إلى أراضي خصبة، نحن فقط من يعرف كيفية الاحتلال، كيف نستولي على الأراضي، كيف نزرعها حتى تثرينا بمنتجاتها. ثم يواصل قوله، قل لي دكتور " بوديشون " Bodichon، ماذا نفعل بهؤلاء الرجال و النساء المتأخرين، المتوحشين، كيف نحولهم لأشخاص يحترمون القوانين ويكونون بمستوى الحضارة التي نقدمها لهم؟

« Regardez-les, regardez ces enfants ! Des gueux innombrables, vermineux, loqueteux, barbouillés d'ordure et puant la bête ! S'ils avaient une âme, ils auraient peut-être conscience de la chance que nous leur offrons ! Ils étaient opprimés par une malice avide et féroce, et nous sommes venus à eux en

[105] الرواية ص16. "هم حائرون. فقد قيل لهم: لا يوجد أشجار أو شجيرات؛ إنها أرض قاحلة، تحت أشعة الشمس. و قيل لهم أيضا أنه لا يوجد إلاّ القليل من المنازل المبعثرة هنا و هناك و التي تبدو عليها أثر القدم لكثرة أشعة الشمس، الرياح و الغبار. لكنهم رأوا القلعة التي بالنسبة لهم هي سراب، التي تشع من كثرة الأضواء. و يوجد أيضا القصور و المنارات، الطرق المنحدرة و المنازل المشتتة بطريقة جد راقية؛ ذات الحدائق الجميلة و الكثيفة." ترجمة شخصية.

libérateurs. D'une contrée sauvage et désolée, nous avons fait des champs, des champs productifs. Nous avons transformé des marécages fétides, immondes, en plaines riantes et fertiles. Nous seuls avons su et savons conquérir, pénétrer, prendre possession d'une terre, la travailler jusqu'à ce qu'elle soit féconde, jusqu'à ce qu'elle nous comble de ses richesses. Mais dîtes-moi, Docteur Bodichon, dîtes-moi, comment faire de ces hommes et de ces femmes si arriérés, si sauvages, des sujets soumis à nos lois et dignes de la grandeur de la civilisation que nous leur apportons ? »[106]

فهنا تبين لنا الساردة أن الفرنسيين قد استولوا على أراضي الجزائريين و اعتبروها أراضيهم، و مع هذا يحتقرون العرب أشد احتقار و يقولون بأنهم لا يستحقون الحضارة التي يقدمونها لهم التي هي في الحقيقة: الوحشية، العذاب و الإبادة الجماعية.

إذ تظهر لنا الساردة الصورة السلبية التي يحتفظ بها الفرنسيون عن الجزائريين؛ حتى وأنهم قد استولوا على أراضيهم و ممتلكاتهم. فهم يرون أن القليل الذين يقدمونه لهم، هم لا يستحقونه. فبالنسبة لهم؛ هم متأخرون و سيبقون كذلك دائما. ودائما صورة الجزائريين عند الفرنسيين هي جد سلبية، حتى و بعد سنوات من الاحتلال. يراهم المستعمر وكأنهم حيوانات و من المستحيل أن يرتقوا و أن يصبحوا متحضرين مثل الفرنسيين.

في الفصل السادس عشر، قامت الساردة باستعمال المشهد الحواري الموصوف، حيث تحدثت عن رجلين يمشيان على شاطئ البحر، هما كاتبين، فيقول الأول ذو الوجه الشديد، الذي يرافق كلامه حركات يقوم بها بيديه: "هل تتذكر ماذا كتبت قبل ستة سنوات، في رحلتي إلى بلاد القبائل سنة 1939؟ أنا أراهم دائما، هؤلاء الأطفال الذين

---

[106] الرواية ص49. "أنظر إليهم، إلى هؤلاء الأطفال الفقراء، الصعاليك، الطفيليين، القذرين، ذو الثياب الرثة، الملوثين بالفضلات و التي تنبعث منهم رائحة الحيوانات. لو كانوا يملكون روحا، لكانوا ربما متيقنين بالفرصة التي نقدمها لهم. لقد كانوا مضطهدين من طرف الخبث و نحن قدمنا لتحريرهم. من بقعة متوحشة و معزولة. قمنا بإنشاء الطرقات و الحقول المنتجة، نحن حولنا المستنقعات القذرة إلى سهول خصبة. نحن فقط من يعرف كيف نحتل و ندخل و نستولي على الأراضي و خدمتها حتى تعطي ثمارا و تغنينا بثرائها. و لكن قل لي دكتور بوديشون، قل لي، كيف نحول هؤلاء الرجال و النساء المتوحشين و المتخلفين إلى أشخاص جديرين بالحضارة التي نقدمها لهم؟" ترجمة شخصية.

ينافسون الكلاب في البحث في سلة المهملات عن ما يكون صالحا للأكل[...] والآخرين الذين ينهارون في المدارس من شدة الجوع، إنها الحقيقة المرة التي تصرح بالكثير. لقد هاجمت هذه سياسة الاستغلال و كنت دائما ضد هذه الآلام التي يعيشها الشعب الجزائري. لاشيء تغير منذ ذلك الوقت. هل تعلم أن اليوم حصة الأكل التي يحصل عليها الجزائريين هي أقل من الحصة التي يحصل عليها المواطن الأوروبي؟ فالأوروبي له الحق في 300غ أما العربي في 250غ، أما في الواقع فهو يحصل على 150غ أي نصف ما يحصل عليه الأوروبي".

« Te souviens-tu de ce que j'écrivais il y a seulement six ans, après mon séjour en Kabylie en 1939 ? Je les revois encore, ces enfants en loques qui disputaient à des chiens kabyles le contenu d'une poubelle… et ces autres qui s'évanouissaient de faim dans les écoles. C'était la vérité ; une vérité criante mais révélatrice. J'ai dénoncé en son temps cette exploitation intolérable du malheur. Rien, non rien, n'a changé depuis. Sais-tu qu'aujourd'hui encore, la ration attribuée à l'indigène est inférieure à celle qui est attribuée à l'européen ? Elle l'est dans les principes, puisque le français a droit à trois cents grammes par jour et l'arabe à deux cent cinquante grammes. Elle est encore dans les faits, puisque l'arabe touche cent cinquante grammes… »[107]

من خلال هذا الوصف على لسان الكاتب الفرنسي "ألبير كامو"، تظهر لنا الساردة صورة المعاناة التي يعيشها الشعب الجزائري جرّاء الاستعمار الفرنسي و الوحشية المطبقة في حق الجزائريين. فلم يتوفر لهم حتى ما يسدون به جوعهم، فقد كانوا يتغذون على ما

[107] الرواية ص92/91. "هل تتذكر ما كتبته قبل ستة سنوات، بعد رحلتي إلى بلاد القبائل سنة 1939؟ ما زلت أراهم، هؤلاء الأطفال ذو الثياب الرثة الذين ينافسون الكلاب في البحث في سلة المهملات عن ما يكون صالحا للأكل [...] و الآخرين الذين كان يُغمى عليهم في المدارس. إنا الحقيقة المؤلمة و التي تدل على أشياء كثيرة. لقد واجهت وقتها هذا الاستغلال و البؤس و لكن لا شيء تغير منذ ذلك الحين. هل تعلم أن اليوم حصة الأكل التي يتناولها المواطن الجزائري هي أقل من تلك المعطاة للأوربي؟ ذلك أنّ الفرنسي يستهلك 300غ في اليوم و العربي 250غ. أمّا في الحقيقة، فالعربي يستلم 150غ [...]."ترجمة شخصية.

يوجد في المهملات و الأعشاب. و تضيف دائما على لسان الكاتب الفرنسي، صورة أخرى و هي الظلم الذي يعيشه الشعب الجزائري، إذ أن ما يتلقاه الجزائريين هو يمثل ثلث ما يتلقاه فرنسيين الجزائر. فتظهر لنا الساردة عدم المساواة، الظلم و التمييز الذي كان مطبق أثناء فترة الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

و تواصل الساردة دائما على لسان "ألبير كامو" قائلا: "منذ الاحتلال الفرنسي لا يمكننا القول أن النظام الاستعماري في الجزائر كان نظاما متناسقا و عادلا[...] خصوصا بعد ما حدث مؤخرا في قسنطينة. كيف يمكننا تقبل تلك المذبحة الشرسة التي أظلمت احتفالات النصر؟".

« Depuis la conquête, il n'est pas possible de dire que la politique française coloniale en Algérie se soit montrée très cohérente… ce qui s'est passé ces dernières semaines dans le Constantinois… comment accepter les massacres sauvages et la répression tout aussi sauvage qui ont enténébré les fêtes de la victoire ? »[108]

الساردة تحدثت عن أحداث 8 ماي 1945 التي خرج فيها الشعب الجزائري يحتفل بنصر فرنسا في الحرب العالمية الثانية، و بالتالي الحصول حريته بعد الوعود التي أعطته إياها بالحصول على الاستقلال إن شاركوا في الحرب و ربحت فرنسا. هنا توصل لنا الساردة، كيف أن احتفالات الجزائريين قد تحولت إلى مجازر؛ فهي تنقل لنا صورة الإبادة الجماعية التي تعرّض لها الجزائريون و تذكر الأحداث الأليمة التي عاشها الشعب الجزائري ذلك اليوم، فبدلا من أن تكون فرحة كبيرة للشعب، أصبحت مجزرة مميتة خلفت 45 ألف شهيد على المستوى الوطني.

[108] الرواية ص92. "منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر، لا يمكننا القول بأن النظام الاستعماري في الجزائر كان نظاما متناسقا... الذي حدث في الأسابيع الماضية في قسنطينة... كيف نتقبل تلك المجازر الشرسة و الاضطهاد الذين جعلوا من احتفالات النصر أياما سوداء؟" ترجمة شخصية.

تواصل الساردة في الفصل العشرين قائلة بأن الطفل "بيير" يسأل أمه لماذا يقولون عن العرب أنهم قذرين رغم أنه قد شاهد في منزل صديقه أن كل شيء نقي، جد نقي و أن النساء تمضي جميع أوقاتهم في الغسل و الكنس و مسح الأراضي، فهو قد شاهدهم يفعلون هذا يوميا.

« Il a demandé à sa mère pourquoi partout on entendait dire que les arabes étaient sales. Dans la maison de son camarade, tout est propre. Très propre, les femmes passent leur temps à balayer, à essuyer, à secouer les tapis et à frotter les plateaux de cuivre. Il les a vues. »[109]

فتريد الساردة أن تنقل لنا الصورة التي يشكلها الفرنسيون عن العرب، كيف أن العرب هم أناس قذرين غير إنسانيين، إلا أنها ليست الحقيقة. فبعد معاشرتهم اكتشف البعض أنها ليست الحقيقة أبدا. فبعد طرح هذا السؤال المحرج أجابته أمه أنها ليست سوى طريقة كلام و أنه بالتأكيد الذين قالوا هذا لم يكونا يعرفوا العرب جيدا.

« Sa mère, visiblement embarrassée, lui a répondu que c'était juste une façon de parler. Ou que, sans doute, les personnes qui disaient ça ne connaissaient pas bien les arabes. »[110]

ففي هذا الفصل أظهرت الساردة أن العرب كانت لديهم صورة سلبية؛ قذرين، لا يحترموا قواعد النظافة. و تضيف قائلة أن حتى و لو شاهد الفرنسيون كيف أن العرب هم نظيفين؛ فلا يريدون الاعتراف بهذا. فبالنسبة لهم العرب هم قذرين و سيبقون كذلك رغم الحقيقة المختلفة.

---

[109] الرواية ص113. "لقد سأل أمه لماذا نسمع عن العرب أنهم قذرين. في منزل صديقه؛ كل شيء نظيف، جد نظيف. فالنساء تمضي أوقاتهن في الكنس و المسح و تنظيف المفروشات و حكّ صينيات النحاس، فقد شاهدهم يفعلون ذلك." ترجمة شخصية.

[110] الرواية ص113. "الأم تبدو محرجة، أجابته أنها ليست سوى طريقة للكلام عنهم. أو أنّه بلا شك، اللذين قالوا هذا الكلام لا يعرفون جيداً العرب."

في هذا المبحث، لاحظنا أن الساردة قد ذكرت العديد من الصور؛ منها صورة الفرنسيين الجاهلين و المقدمين على احتلال بلد لا يعرفون عنه شيئا(لا وجود لحياة في الجزائر)، مدى رقي و حضارة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، تخلف الجزائريين و كأنهم حيوانات بالنسبة للفرنسيين. عدم المساواة، الظلم و التمييز الذي عاشه الشعب الجزائري، صور مجازر أحداث 8 ماي 1945، و أخيرا كيف أن العرب هم أشخاص قذرون، و بعيدون كل البعد عن قواعد النظافة بالنسبة للفرنسيين، رغم أن الحقيقة هي جد مختلفة.

المبحث الرابع: رمزية الطفل

في المبحث التالي سوف نتحدث عن شخصية الطفل، الذي هو في الحقيقة يمثل الشعب الجزائري. فـ"الطفل" هو شاهد على كل ما يحدث في الجزائر أثناء فترة الاستعمار الفرنسي. و هو يبقى طفلا طوال هذه الفترة (1830-1962) و ذلك حتى ينقل لنا بعيون بريئة و صادقة كل ما يحدث في الجزائر.

في بداية روايتها قامت الساردة بوصف المظهر المخيف الذي رآه الطفل صباحا والمتمثل في المئات من السفن الواقفة على شاطئ البحر وكيف أنه لكم يصدق ما قد رآه، فقد ذهب مباشرة إلى ضريح سيدي فرج ليصلي حتى يكون ما قد رآه خياليا وليس حقيقيا.

« L'enfant, prosterné lui aussi, implore le saint, implore Dieu pour qu'il efface de sa mémoire ces ombres dressées contre le ciel. »[111]

في الفصل الخامس، قامت الساردة بوصف آلام الطفل، فليلاً،حينما كان في الخارج، تواجد في الغابة مع الذئاب والثعالب التي خرجت من جحورها للبحث عن فريسة، رغم أن الطفل كان وحيدا، إلا أنه لم يخف أو بالأحرى لم تكن لديه القوة ليخاف وذلك جراء ما عاشه في نهار ذلك اليوم، إذ أن لهيب النار مازال يراه في عينيه المحمرة من جراء الدخان والرماد.

« Cerné par la meute, l'enfant n'a même plus la force d'avoir peur. Bien qu'éteintes depuis la tombée du jour, les flammes dansent encore devant ses

[111]الرواية ص13."الطفل، ساجدا هو أيضا، يترجى الضريح، يترجى الله حتى يمحي من ذاكرته تلك الضلال الصامدة ضدّ السماء." ترجمة شخصية.

yeux rougis par la fumée. Tel un nuage de poussière impalpable et délétère, l'odeur âcre partout répandue l'enveloppe tout entier. »[112]

بعدما رأى الطفل الموت قادماً بعينيه، بدأ بعدِّ الأشخاص وتسميتهم، الأشخاص الذين لن يراهم بعد الآن أبدا، لأنهم سيصبحون خيالا في ذاكرته، فيجب عليه تذكرهم جميعا المعذبين والموتى، تسميتهم واحد بواحد، لأنهم سيصبحون فيما بعد منسيين من طرف التاريخ، فقد بدأ بالرجال أولا: الأب عيسى، الجد محمد، إخوته جميعا، الصغار، الكبار، عبد القادر، أحمد، عبد الرحمان، بوعلام، جميعا نعم جميعا. ثم جاء دور النساء، نعم جميع نساء القبيلة. بعدما خفّف من نبرة صوته، بدأ أولا باسم أمه فاطمة التي مازال يشم رائحتها، يسمع صوتها ويرى بريق نظراتها. ثم نادى عائشة. بعدها كان دور أخته خديجة التي قبل يومين كانت تجري فاتحة ذراعيها حتى تشعر بالريح جيدا كما كانت تقول. تساءل في نفسه، لماذا لم تتبعه؟ لماذا لم تختبئ معه؟ ثم بدأ في تعداد الحيوانات أيضا، الأبقار، الخيول وحتى الخرفان!

«A présent, il compte. Il nomme un à un tous ceux qui désormais n'entendront plus ses appels, ne prononceront plus son nom et bientôt ne seront plus que des ombres peuplant sa mémoire. Il doit, il doit invoquer un à un les suppliciés. Et en les nommant, les forcer à exister encore un peu, car bientôt ils seront oubliés par l'histoire. Mais cet instant, leurs cendres sont encore chaudes. Encore frémissantes. Les hommes d'abord. Le père, Aissa. Le grand père, Mohamed. Ses frères. Tous, oui tous. Les petits, les grands. Abdelkader, Ahmed, Abderrahmane, Boualem. Tous, oui, tous. Et puis les femmes. Toutes les femmes de la tribu. Tout bas, il dit le nom de sa mère, Fatima, et il retrouve la lumière de son regard posé sur lui, son odeur, sa voix. Il appelle doucement sa grand-mère, Djedda Aicha. Et l'évoquant, il se revoit blotti contre son corps ample et généreux. Au tour de Khadîdja, maintenant, sa sœur… sa sœur qui, il ya seulement deux jours, courait dans

[112] الرواية ص27."الطفل محاصر بالذئاب و الثعالب و لكنه لا يملك القوة حتى يشعر بالخوف. بالرغم من أنّه قد أُطفأ منذ نزول الليل، إلّا أن لهيب النار ما زال يراه في عينيه المحمرّة من جرّاء الدخان و الرماد، كسحابة من الغبار جد عالية، و كثيفة. و الرائحة القوية للحريق المنتشرة تغطّيه بالكامل." ترجمة شخصية.

les champs les bras écartés pour mieux sentir le vent, disait-elle. Khadîdja qui, à mains nues sur la roche, grimpait presque aussi vite que lui. Pourquoi ? Pourquoi ne l'a-t-elle pas suivi ? Pourquoi ne l'a-t-il pas appellée ? Et puis les bêtes. Les bœufs. Les chevaux. Les moutons »[113].

فهنا تبين لنا الكاتبة وحشية الاستعمار التي لم تستثني أحدا، إذ قُتِل الرجال، النساء، الأطفال، الشيوخ، الكبار، الصغار وحتى الحيوانات فالكل لقي المصير نفسه بدون رحمة أو شفقة. و الطفل، بالرغم من براءته و صِغر سنِّه، فهو قد عاش كل هذه الأحداث الأليمة.

في الفصل التالي (السابع)، تصف لنا الساردة الطفل في المدرسة، حيث أنه في قسمه يجلس على طاولة، وعلى الصبورة مكتوبة هذه الجملة:"أحب وطني فرنسا "، أما على الجزء الأيمن من الصبورة، توجد خارطة فرنسا بجبالها، أنهارها و وديانها ، مدنها و قراها.

« Assis derrière leurs pupitres, bras croisés, les enfants attendent. Face à eux, sur le tableau noir, au-dessous de la date du jour, soigneusement calligraphiée en lettres cursives, cette phrase : « j'aime mon pays, la France ». Accrochée sur le panneau droit du tableau, une carte de

[113]الرواية ص 28/27. "الطفل يعد، هو يسمي واحدا بواحد كل الذين لن يسمعوا نداءه من الآن فصاعدا، الذين لن ينطقوا باسمه و سيصبحون خيالا في ذاكرته. يجب عليه أن يذكر واحدا بواحد كل الموتى. فبتسميتهم هو يجبرهم على البقاء قليلا بعد، ذلك أنه قريبا سيصبحون نسيا منسيا من طرف التاريخ. و لكن الآن رمادهم مازالت دافئة. الطفل بدأ بالرجال أولاً؛ الأب عيسى، الجد محمد، إخوته كلهم، نعم كلهم. الصغار، الكبار؛ عبد القادر، أحمد، عبد الرحمن، بوعلام، كلهم، نعم كلهم. ثم النساء؛ جميع نساء القبيلة. فبصوت خافت هو ينطق اسم أمه فاطمة الذي يجد نور نظراتها متجها نحوه، رائحتها، صوتها. و ينادي بصوت خافت جدته؛ الجدة عائشة. فبمناداتها هو يرى نفسه مجددا يعانق جسدها الضخم. دور خديجة الآن، أخته...أخته التي من يومين كانت تجري في الحقول فاتحة ذراعيها حتى تتحسس الرياح كما كانت تقول. خديجة التي كانت تقفز على الصخرة أسرع منه. لماذا؟ لماذا لم تتبعه؟ لماذا لم تناديه؟ و حتى الحيوانات، البقر، الأحصنة و الكباش." ترجمة شخصية.

géographie. C'est la France. Ses plaines et ses montagnes. Ses fleuves et ses rivières. Ses villes et ses villages. »[114]

والأطفال يعرفون تسمية كل هذا بالفرنسية لأنهم قد تعلموا في المدرسة كل هذه الأسامي، فالكاتبة تظهر لنا أن فرنسا ساهمت في تغيير هوية الأطفال الجزائريين بدءا من جملة "أحب وطني فرنسا " ، والتعريف بفرنسا جغرافيا (الخريطة) مع تسمية كل ما يشكلها بالفرنسية وليس بالعربية.

عندما تطلب المعلمة من تلاميذها تكرار الجملة "أحب وطني فرنسا" ، فالبعض ينشد هذه الجملة بإيمان ويقين و بشدة، ويوجد من ينطق هذه الكلمات ببطء وكأنهم يستشعروا المعاني الموجودة في هذه الجملة والتي هي عبارة عن إعلان حب وطني كبير. ويوجد بعض التلاميذ الذين يجلسون في آخر القسم، يترددون، يتعثرون في نطق الكلمات، الطفل هو من هذه الفئة الأخيرة، فهو مجبر على النطق بصعوبة كبيرة، فالحروف تأبى أن تُنطق بطريقة صحيحة رغم مجهودات الطفل الذي يرغب في التعلم.

« Il y a ceux qui débitent d'un trait cette profession de foi. Avec conviction. Avec ferveur. Il y a ceux qui prononcent les mots lentement. Avec une application touchante. Comme s'ils voulaient par- là se pénétrer de la profondeur de cette déclaration d'amour matinale. Il y a ceux qui – tout au fond de la classe- qui hésitent, trébuchent sur les mots et se font reprendre d'un coup sec de baguette sur le bureau. L'enfant est de ceux-là. Les mots qu'il prononce péniblement semblent déplacés dans sa bouche. Echappant à tout contrôle, les voyelles s'insurgent. Et elles résistent aux efforts pourtant sincères de l'enfant désireux d'apprendre. Les autres élèves pouffent de rire. Un brouhaha vite jugulé par la voix exaspérée de madame Lafrance. *J'ime*

[114] الرواية ص 39."الأطفال جالسين خلف طاولاتهم، جامعين أيديهم و ينتظرون. توجد سبورة سوداء اللون أين كُتب تاريخ اليوم و تحته بخط واضح و جد جميل؛ كُتبت الجملة: "أحب وطني فرنسا". و في الجهة اليمنى من السبورة؛ توجد خريطة فرنسا، بجبالها، أوديتها، أنهارها، مدنها و قراها." ترجمة شخصية.

mo piyi, la Fronce. L’enfant lui, ne rit pas. Les sourcils froncés, il s’’obstine. Mais les voyelles restent réticentes »[115].

فهنا تبين لنا الساردة، أنه رغم إرادة الطفل في التعلم، إلا أنه غير قادر على النجاح وذلك راجع إلى مضمون الدروس. فبغض التلاميذ ليس لديهم أي مشكل فيما يخص الهوية الفرنسية، والبعض الآخر يتعثرون في الكلمات وذلك لأنهم متيقنين من أن ما يتعلمونه هو خاطئ والحقيقة هي جد مختلفة عن ما يقال لهم في المدرسة. إذن الساردة تشرح لنا واقع الأطفال الجزائريين في المدرسة الفرنسية

في الفصل العاشر، قامت الساردة بشرح المأساة التي يعيشها الطفل، و كيف استطاع مقاومة كل ما هو صعب وهو لم يبك حتى. فالعبارة: "الطفل لم يبك" مكررة في كل هذا الفصل.

فهي تقول أنه عندما جفت الأرض وقحلت ولم يجد الطفل ما يأكل هو وإخوته، وكان الجوع يعذبه طوال اليوم حتى أدى بحياة إخوته وأخواته، الطفل لم يبك. حوله كان الناس يقولون إنه المكتوب، أي شيء مقدر علينا.

« Quand, à la saison des pluies, le ciel est resté désespérément sourd à toute prière, que la terre assoiffée se craquelait sous ses pieds, que la faim le taraudait et qu’il se nourrissait de racines et d’herbes, qu’il disputait des restes aux chiens affamés, que ses frères et sœurs, un à un, était portés en

[115]الرواية ص 40."بعض الأطفال ينطقون هذه الكلمات بإيمان و يقين، البعض الآخر ببطء شديد، بطريقة معبرة و كأنهم يريدون أن يستشعروا كل صباح هذه الجملة التي تدل على حب الوطن. و يوجد أيضا الذين يجلسون في آخر القسم، الطفل من بينهم، الذين يترددون و يتعثرون في الكلمات، فيعيدون نطقها بعد سماع صوت ضرب العصا على المكتب من طرف المعلمة. هي كلمات تنطق بصعوبة شديدة و التي تخرج من أفواههم بعد عناء، فهي تقاوم مجهودات الطفل الراغب في التعلم. فتنتشر ضحكات الأطفال الآخرين التي تتوقف بصوت مدام لافرانس الساخط." ترجمة شخصية.

terre par un père silencieux et résigné, l'enfant n'a pas pleuré. Autour de lui, les adultes se contentaient de dire en soupirant, *Mektoub*, c'était écrit. »[116]

فهنا شرحت الساردة سياسة التجويع التي عاشها الشعب الجزائري أثناء الثورة التحريرية وكيف مات الكثير بسبب الفقر والجوع. عندما قام الجراد بتدمير كل المحصول الزراعي، الأراضي و التهم كل ما يملك السكان، قام الطفل مع أفراد قبيلته بشعل النيران لإبعاد الحشرات المدمرة، قاوم الجراد بكل ما أوتي من قوة، لكنه لم يبك، وقد قالوا أن هذا امتحان ومكتوب.

« Quand, venus du sud en nuées tourbillonnantes, les criquets ou les sauterelles- l'un de ces fléaux les plus terribles que Dieu envoie de temps à autre pour mettre les hommes à l'épreuve- ont ravagé les terres, les récoltes, et dévoré tout ce qu'ils possédaient, jusqu'aux burnous et tentures de laine qui les protégeaient du froid, debout dans les champs avec tous les hommes du douar, l'enfant a tapé de toutes ses forces sur un Tam- Tam, allumé des feux, agité des lambeaux de tissu rouge pour éloigner les insectes dévastateurs, mais pas un instant il n'a désespéré, pas un instant il n'a pleuré. Une fois encore, hommes et femmes ont invoqué Dieu et imploré se clémence et son assistance, puis se sont résignés. *Mektoub*, c'était écrit »[117].

أي بالرغم من المحن التي عاشها الطفل (أي المجتمع الجزائري بصفة عامة)، هو لم يستسلم بل بالعكس، أظهر قوة كبيرة وصبر لتحمل الخسائر والمصائب المتتالية.

---

[116] الرواية ص 53."في فصل الشتاء، لم تمطر السماء أبدا، و جفّت الأرض كلية، و أصبح الجوع يرافق الطفل؛ فكان يأكل فقط الأعشاب و يتغذى من البقايا المرمية التي يتنافس عليها هو و الكلاب، حينها إخوته و أخواته كانوا يموتون واحدا فواحدا و كان الأب يدفنهم في صمت. لم يبك الطفل؛و حوله كان الكبار يكتفون بقول أنه مكتوب." ترجمة شخصية.

[117] الرواية ص 54."عندما جاء الجراد من الجنوب الذي يعتبر من أشد الآفات التي ينزلها الله على عباده ليمتحنهم من وقت لآخر، دمّر الأراضي و المحاصيل و التهم ما كانوا يملكون؛ حتى البرنوس و الشراشف التي كانت تحميهم من البرد. قام الطفل مع جميع رجال الدوار بشعل النيران و ذلك لإبعاد الحشرات المدمرة، فلم ييأس و لم للحظة واحدة و لم يبك. و مرة أخرى، قام الرجال و النساء بذكر الله وطلب رحمته و عونه؛ ثم قالوا أنّه مكتوب." ترجمة شخصية.

و في نفس الفصل، واصلت الساردة ذكر قوة و شجاعة الطفل و صبره على المحن و عدم بكائه، فهي تقول: عندما اكتشف العدو الفرنسي أن أقارب الطفل قد ساعدوا الثوار الجزائريين وأسكنوهم وأطعموهم ، قام بترحيلهم من قريتهم بعد أن أحرقوها، وظل الطفل وعائلته يتجولون في الشوارع لأيام وأيام لإيجاد مأوى، تبعهم الطفل و لم يبك.

« Quand les siens ont été bannis parce qu'ils avaient offert l'hospitalité à des guerriers poursuivis par les troupes françaises, qu'ils ont dû quitter leur village saccagé et brûlé, qu'ils ont dû errer pendant des jours et des jours à la recherche d'un endroit pour s'y fixer et trouver quelque pitance, l'enfant les a suivis, sans pleurer. »[118]

هنا بينت الساردة أن الشعب الجزائري قد حُرمَ من أدنى حقوق إنسانيته، فقد أخرج من دياره، حرقوا قريته وظل بدون مأوى لأسابيع وحتى لشهور أيضا.

عندما أُجبر أفراد قبيلة الطفل على السكن في معسكرات الحصر، الطفل لم يبك بل وقف بجانب أمه وشجعها.

« Quand tous les membres de la tribu ont été expulsés des terres sur lesquelles ils vivaient depuis toujours, qu'on les a relégués dans des camps de resserrement, l'enfant, pour soulager sa mère, a porté le balluchon contenant tout ce qu'ils possédaient, mais il n'a pas pleuré »[119].

فالشعب الجزائري قد وُضِعَ تحت الحصار المكثف وذلك للسيطرة عليه و على حريته في التنقل، لمراقبته أي لتجريده من إنسانيته.

---

[118] الرواية ص 55."عندما نُفيت عائلة الطفل لأنها قدمت الضيافة للثوار المتبوعين من طرف الجيش الفرنسي، و حُرّقت قريتهم، كانوا مجبورين على التجول في الشوارع لأيام عديدة للبحث عن مكان ليقيموا فيه، الطفل تبعهم و لم يبك." ترجمة شخصية.

[119] الرواية ص 55."عندما قام المستعمر بمصادرة جميع أراضي القبيلة التي كانوا يعيشون فيها و قمنا بوضعهم في معسكرات محاصرة، الطفل حتى يواسي أمه قام بإحضار كل ما يملك و لكنه لم يبك." ترجمة شخصية.

تبين لنا الساردة من خلال شجاعة الطفل صورة من صور معاناة الشعب الجزائري. ففي كل مرة يمثل الطفل جزءاً مختلفا من الشعب الجزائري والمعاناة التي عاشها و الآلام التي رافقته و مع ذلك ظلّ الشعب الجزائري صامدا، صبوراً و لم يفقد الأمل و لو للحظة. فهنا تقوم الساردة بذكر جميع المواقف المؤلمة التي مرّ بها الشعب الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي.

عندما أُمِرَ الشعب الجزائري بقطع أشجار الزيتون والتين والبرتقال الخاصة بهم وأُخِذَت جميع ماشيتهم، عزل الطفل نفسه في أعلى الجبل وحيدا ولكن لم يبك.

« Quand ordre leur a été donné de couper eux-mêmes leurs oliviers, leurs figuiers et leurs orangers, quand on a confisqué toutes les têtes de bétail de la tribu accusée d'avoir osé se soulever contre l'autorité de madame Lafrance, quand on a, sous ses yeux, égorgé son agneau pour en faire ripaille, l'enfant s'est refugié tout en haut de la colline. »[120]

إذن الشعب الجزائري قد جُرّدَ من كل ما يملك ولم يتبق له أي شيء. لم يعد يملك أي مصدر ليعيش منه وليأوي عائلته، وكأنه أُخِذَت منه كل حياته.

عندما منع والد الطفل من دخول المسجد يوميا لأداء صلواته، لأن مدام "لافرانس" قررت أنه على تغيير المسجد إلى كنيسة، الطفل لم يبك، بل صلى في ساحة المدرسة القرآنية وشكر ربه وأحس كما أن كل حزنه قد اختفى.

« Quand on a interdit à son père l'entrée de la mosquée, dans laquelle il allait faire quotidiennement ses prières, parce que madame Lafrance avait décidé qu'elle serait dorénavant consacrée au dieu des chrétiens, l'enfant s'est joint aux prières faites en plein air, dans la petite cour de l'école coranique, il a

[120] الرواية ص 55."عندما أُعطي أمر قطع أشجار الزيتون والتين و البرتقال و عندما صُدرت الأراضي و المواشي من القبيلة التي قيلت أنها نفسه في أعلى الجبل وحيداً." ترجمة شخصية.

rendu grâce à Dieu pour son immense miséricorde et son chagrin s'est apaisé »[121].

أي حتى المساجد قد غيّرت و أصبحت كنائس و لم يبق للمسلمين أماكن أين يصلون، فقد كانوا يصلون في أماكن بعيدة عن أنظار العدو الفرنسي وقد أُمِروا أن يعبدوا إله المسحيين.

عندما أُلبس والد الطفل الزي العسكري و أُجبر على المشاركة في الحرب مع مدام لافرانس ضد العدو، الطفل شاهد أباه ذاهبا محاصرا بالجنود، جرى وراءه كثيرا ثم توقف، لكنه لم يبك. وعندما جاء جنديان وأخبرا الطفل وأمه بأن الوالد قد توفي مدافعا عن وطنه (فرنسا)، وقفا مدة طويلة صامتين، لكنه لم يبك.

« Quand ils ont ouvert leur porte, qu'ils se sont retrouvés face à deux soldats en uniforme venus leur annoncer que leur père et mari était mort, là- bas, de l'autre côté de la mer, en défendant sa patrie, la France, l'enfant et sa mère sont restés debout un long moment sans comprendre, puis dans un long hurlement, sa mère s'est effondrée. L'enfant hébété n'a même pas pu pleurer. »[122]

فالجزائريون أثناء فترة الاحتلال الفرنسي كانوا مجبورين على المشاركة في الحروب مع، مما يدل على سياسة التجنيد الإجباري.

فطوال هذا الفصل، تحدثت الكاتبة عن شجاعة الطفل الكبيرة، عن صبره، عن وقوفه وتصديه لكل المآسي المنبثقة من سياسة الاستعمار الفرنسي. وطبعا هنا بالطفل تريد الكاتبة أن تعكس صورة كل الشعب الجزائري وشجاعة مقاومته للاستعمار. ففي كل مرة

---

[121] الرواية ص 55."عندما مُنع والده من دخول المسجد أين كان يصلي يوميا جميع أوقاته لأن مدام لافرانس قررت تغيير المسجد إلى كنيسة، الطفل أصبح يؤدي صلواته مع الآخرين، في ساحة المدرسة القرآنية. فبفضل رحمة الله و قدرته خُفّف حزنه." ترجمة شخصية.

[122] الرواية ص 57 /56."عندما فتحوا الباب و وجدوا جنديين قادمين ليخبروهم أنّ والدهم (زوجهم) قد توفي، هناك، في الجهة الأخرى من البحر، و ذلك أثناء دفاعه عن وطنه (فرنسا)، الطفل و الأم بقيا واقفين لمدة طويلة بدون أن يفهما شيئا. ثم أثناء صراخ قوي، أغمي على الأم أمّا الطفل في حيرة كبيرة، لم يستطع حتى البكاء." ترجمة شخصية.

كان الطفل يمثل صورة من صور المعاناة التي عاشها المجتمع الجزائري أثناء فترة الاستعمار الفرنسي.

تطرقت الساردة في الفصل الثاني عشر إلى الاختلافات الموجودة بين الفرنسيين والعرب أثناء الاحتلال، فبدأت وصفها قائلة بأن الطفل عندما يذهب إلى المدرسة، فهو يجتاز جميع الشوارع الراقية، التي تحتوي على المحلات ويجتاز أيضا المقاهي والكنيسة والعديد من المباني الفخمة والعالية التي بمجرد النظر إلى علوها يحس بدوار.

« Pour aller à l'école, l'enfant traverse les rues, les jolies rues neuves et propres ; il passe devant les magasins et les cafés, contourne le kiosque sur la place, dépasse l'église et longe plusieurs bâtiments. Certains sont si hauts qu'il lui vient comme un vertige »[123].

في بعض الأحيان يتوقف الطفل ليرى كل ما هو غريب عنه وعن عاداته، فمن وقت طويل فهم أنه توجد اختلافات كبيرة بينهم وبين الفرنسيين، حتى وإن أراد بعض العرب أن يشبهوا الفرنسيين في تصرفاتهم. فعند الأكل يجلس الفرنسيون حول طاولة على كراسي، هم يشربون الخمر، ويعبدون الله في أماكن مختلفة عن المساجد وبلغة مختلفة عن اللغة العربية. نساءهم لا تشبه أبدا نساء العرب، فهي تخرج إلى الشوارع عارية الرأس وترتدي فساتين قصيرة نستطيع من خلالها رؤية جسمها، هي تجلس في المقاهي مع الرجال، تتحدث بصخب دون حياء.

« Leurs femmes ne ressemblent en rien aux femmes de sa race. Elles vont tête nue dans les rues. Elles portent des robes courtes et légères qui exposent aux regards leurs bras et leurs jambes nus. Elles côtoient les hommes,

[123] الرواية ص 64."للذهاب إلى المدرسة، الطفل يجتازالشوارع الجميلة، النقية والجديدة، يجتاز أيضا المحلات و المقاهي و الأشكاك المجودة في الساحة، بعدها الكنيسة و العديد من البنايات. بعض البنايات هي جد عالية لدرجة أنها تسبب الدوّار للطفل بمجرد النظر إلى علوها." ترجمة شخصية.

s’assoient avec eux dans les cafés, parlent et rient bruyamment, sans aucune pudeur. »[124]

أيضا الفرنسيون يعيشون في المنازل، أما العرب في أكواخ. العرب ينامون فوق الحصير ة أما الفرنسيون فوق السرير، وهذه الفروقات مكتوبة في كتاب يدرس به الطفل في المدرسة الفرنسية. فالساردة تحاول أن تكشف جميع الفروقات الموجودة في عادات وتقاليد المجتمع الفرنسي والعربي معا.

وصفت لنا الساردة كيف يقضي الطفل يومه في المدرسة. فالطفل يذهب إلى مدرستين، المدرسة الفرنسية والمدرسة القرآنية. ففي الصباح يستيقظ باكرا للذهاب إلى المدرسة القرآنية، فهناك المعلم يجلس على السجادة أما الطفل على حصيرة من الحلفاء وهو يكتب على لوحة التي في نفس الوقت هي الكراس. ثم على الثامنة صباحا يذهب عندما يستطيع إلى المدرسة الفرنسية، هناك هو يجلس على مكتب، يكتب بقلم حبر على كراس مكون من صفحات بيضاء.

« Déjà dans les écoles, rien n’est pareil. Parce que l’enfant fréquente deux écoles. Le matin, très tôt, il va à l’école coranique. Là-bas, face au vieux maître assis sur un tapis, l’enfant s’assoit en tailleur sur une natte en alfa et, après avoir taillé un roseau fin, il écrit sur une planchette de bois qui lui sert à la fois d’ardoise et de cahier. Puis à huit heures, quand il le peut, il lui faut être à l’école des Roumis. Là-bas, il s’assoit derrière un pupitre, il trempe sa plume sergent- major dans l’encrier avant d’écrire sur un cahier composé de feuilles blanches. »[125]

---

[124] الرواية ص 65."النساء لا تشبه في شيء نساء عالمه . هن تخرهن عارية الرأس، ترتدي فساتين قصيرة و خفيفة التي تظهر تظهر أذرعهن و أرجلهن. هن تجلسن مع الرجال في المقاهي، تتحدثن معهم و تضحكن بصخب و بدون أي حياء." ترجمة شخصية.

[125] الرواية ص 65."الطفل يذهب إلى مدرستين. في الصباح باكرا، هو يذهب إلى المدرسة القرآنية. هناك الطفل يجلس على حصيرة بينما المعلم على سجادة، هو يكتب بواسطة قصبة على اللوحة التي هي في نفس الوقت الكراسة. ثم على الثامنة يذهب عندما يستطيع إلى المدرسة الفرنسية. هناك هو يجلس وراء مكتب، يكتب بقلم الحبر على كراس مكون من أوراق بيضاء." ترجمة شخصية.

فالمدرسة هي المكان الوحيد الذي يستطيع فيها الطفل أن يقترب من الفرنسيين لكنه لا يخالطهم كثيرا إلا في وقت الراحة عندما يشاركهم في اللعب. المعلمة هي التي تفتح لهم باب العلم. ففي الصباح قبل بدء الدروس هي تقف عند باب القسم صامتة، لكنها تبدي انزعاجها عندما ترى أطفال العرب يأتون للمدرسة حفاة الأقدام، مرتدين سراويل ممزقة.

«Debout devant la porte de la classe afin de les accueillir, elle ne dit rien, mais ils sentent bien qu'elle est gênée de les voir très souvent arriver à l'école pieds nus et portant des sarouels déchirés. »[126]

تطرح الساردة هنا حالة الفقر التي كان يعيشها المجتمع الجزائري أثناء الاستعمار، فكان الأطفال يتجولون حفاة الأقدام، مرتدين ثيابا ممزقة أينما ذهبوا.

تواصل الساردة قائلة بأن الطفل لا يستطيع الذهاب يوميا إلى المدرسة، لأن عليه أن يعمل في الحقول وتوجد أيضا المسائل العائلية التي عليه أن يشارك في حل مشاكلها، وفي بعض الأحيان هو لا يملك القدرة على مواجهة الجوع والبرد.

« Mais il ne peut pas aller à l'école tous les jours. Il y a les travaux des champs, les affaires familiales, et aussi les matins où il n'a pas la force d'affronter le froid et la faim. »[127]

فهنا تبين الساردة الحالة المزرية التي يعيشها الطفل (المجتمع الجزائري) فهو محروم من أدنى حقوقه.

تطرقت الساردة بعد ذلك إلى تصرفات الطفل في القسم فوصفته قائلة بأنه يتابع معلمته، يركز معها جيدا، هو يتعلم و يحفظ كل ما تقدمه له، الكلمات، الجمل، دروس العلوم الطبيعية، دروس الحساب، المحفوظات، حتى و إن كان ما يسمعه كان يبدو له بعيدا و

---

[126] الرواية ص 66."واقفة أمام باب القسم لتستقبل التلاميذ، المعلمة، لا تقول شيئاً و لكن التلاميذ يشعرون بانزعاجها عندما تراهم حفاة الأقدام و مرتدين سراويل ممزقة." ترجمة شخصية.

[127] الرواية ص 66."هو لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة يوميا، فهناك الأعمال في الحقول، المسائل العائلة و في بعض الأحيان هولا يملك القدرة أساسا على مواجهة البرد و الجوع." ترجمة شخصية.

غريبا عن واقعه. كان يعرف أنه هناك العديد من الأسئلة التي لا يستطيع طرحها و التي لا تستطيع معلمته الإجابة عنها فالفجوة هي جد كبيرة بين واقع الطفل و بين ما يتعلمه في المدرسة.

« Quand il est dans la classe, il écoute de toutes ses oreilles. Il apprend. Il retient tout ce qu'on lui demande de retenir. Les mots. Les phrases. Les leçons de sciences naturelles. Les leçons de calcul. Les récitations. Même si, bien souvent, ce qu'il entend lui semble étrange, lointain, si éloigné de sa vie, que les images se bousculent et s'entrechoquent dans sa tête et qu'il a du mal à revenir à la réalité qui est la sienne. Mais il sait qu'il y a des questions qu'il ne peut pas poser. Des questions auxquelles sa maîtresse ne pourrait pas donner de réponse. »[128]

شرحت "مدام لافرانس" للتلاميذ أنه لكي يكونوا متحضرين عليهم أن يكونوا نظفين، أن يغتسلوا كل صباح، أن يتكلموا الفرنسية، أن يعرفوا الحساب، زرع الخضار و الفواكه، و لكن الطفل لا يتجرأ القول للمعلمة أن الكل في منزله يغتسل كل يوم، حتى الذين لم تكن لهم فرصة الذهاب للمدرسة يوما، هم يتوضؤون خمسة مرات يوميا للصلاة. والده لم يذهب يوما إلى المدرسة الفرنسية، لكنه يتقن الحساب عندما يشتري من السوق حاجيات المنزل، يتقن القراءة بالعربية مثل والده و والد والده.

« L'enfant a compris maintenant. Pour plaire à madame Lafrance ou simplement pour se hausser à son niveau, il faut se laver, parler sa langue, aimer son pays à elle, et cultiver la terre. C'est cela, être civilisé. Rien que cela. Mais…….comment être en même temps un bon Arabe et un bon Français ? L'enfant n'ose pas dire à la maîtresse que chez eux, à la maison, tout le monde se lave. Même ceux qui n'ont jamais suivi les cous d'instruction civique à l'école. Bien sûr, il n'y a pas ce robinet qu'on tourne

[128] الرواية ص66."عندما يكون في القسم، هو يسمع جيدا كل ما تقوله معلمته، فهو يتعلم، يحفظ كل ما يُطلب منه أن يُحفظ؛ الكلمات، الجمل، دروس العلوم الطبيعية، دروس الحساب، المحفوظات. و حتى و إن بدا له في بعض الأحيان غريبا ما يتعلمه، بعيد و جد مختلف عن حياته، فالصور تختلط في رأسه و هو يجد في بعض الأحيان صعوبة للعودة إلى واقعه. و لكنه يعلم أنه هناك أسئلة لا يستطيع طرحها لأن معلمته لا يمكنها الإجابة عنها." ترجمة شخصية.

pour faire couler de l'eau comme dans les maisons des français. Mais on va à la fontaine ou à la source et, avec l'eau ramenée parfois de très loin, on fait ses ablutions avant de prier. Cinq fois par jours, pas seulement le matin. Et l'été, on se baigne et on lave le linge dans l'oued. Et puis, bien qu'il ne soit jamais allé à l'école des français, son père sait calculer quand il fait ses achats au souk. Il sait lire, aussi. Il sait lire l'arabe comme son père avant lui, et comme le père de son père. »[129]

فتبين لنا الساردة أن ما جاءت فرنسا لتغييره و لغرسه في المجتمع الجزائري هو أصلا موجود منذ قرون و قرون.

في الفصل الرابع عشر، تحدثت الساردة عن شخصية " سي لالوا " ، كيف كانت ترفض كل ما يريد أفراد المجتمع الجزائري القيام به، كان الطفل يريد معرفة من هذا الشخص الذي يفكر فيه كل ليلة، مصدر تعاسته و أحزانه؟ كان الطفل يريد فقط رؤيته، أن يقترب منه ليتمكن من إعطاء هذا الاسم صورة خاصة به، فبالتأكيد هو شخص جد قوي و له نفوذ عالي، فمجرد ذِكر اسمه هو كفيل بإنهاء المحادثات بين الناس.

« Mais pour lui, le mystère demeure. Qui est-il ? Qui est donc cet homme qui hante ses nuits, qui est à la source de toutes ces errances, de tous leurs malheurs ? Dévoré de curiosité, l'enfant voudrait simplement le voir, l'approcher, mettre un visage sur le nom de cet être si redoutable, si puissant,

[129] الرواية ص 68."الطفل قد فهم الآن أنه حتى ينال إعجاب مدام لافرانس، أو ليرتقي لمستواها؛ عليه أن يغتسل، أن يتكلم لغتها، أن يحب وطنها هي، أن يزرع الأراضي. فهذا ما يجعل الإنسان متحضرا و لكن [...] كيف يكون في نفس الوقت فرنسيا و عربيا؟ الطفل لا يتجرأ على القول لمعلمته أنه في منزلهم الجميع يغتسل. حتى الذين لم يتعلموا دروس التربية المدنية في المدرسة. فلا توجد الحنفيات عندهم مثل ما توجد في منازل الفرنسيين؛ و لكنهم يذهبون إلى الينابيع و يجلبون الماء للوضوء خمس مرّات في اليوم، ليس صباحا فقط. و في الصيف هم يسبحون و يغسلون الملابس في الواد. و بالرغم من أنّ والده لم يذهب يوما إلى المدرسة؛ إلّا أنّه يتقن الحساب عندما يشتري في السوق، و يعرف قراءة اللغة العربية تماما مثل والده و والد والده." ترجمة شخصية.

qu’il suffit d’évoquer pour que les conversations cessent et que les regards se dérobent. »[130]

فالساردة تحاول التطرق في هذا الفصل إلى مدى سذاجة المجتمع الجزائري لاعتقاده أن "سي لالوا " هو شخص من لحم و دم يملي القوانين كما يشاء. في أحد الأيام في القرية، قام الجنود الفرنسيين بتكبيل رجل جزائري و أخذه معهم للقيام بالأعمال الشاقة في السجن و ذلك لعدم احترامه لرجال "مدام لافرانس ". و هناك سمع الطفل الجنود يقولون إنه القانون « C’est la loi » فهناك فهم الطفل أن "سي لالوا " ليس بشخص واحد و إنما مجموعة أشخاص مختلفة. القانون هو "مدام لافرانس"، المرأة القوية و الأقوى من جميع رجال القرية.

« Et puis, un matin, l’enfant s’est trouvé au milieu d’un attroupement qui s’était formé pour suivre l’un des siens qu’on emmenait, enchainé, au bagne de Cayenne. L’homme était condamné aux travaux forcés pour comportement irrévérencieux envers un représentant de madame Lafrance. L’enfant a entendu l’un des soldats prononcer distinctement ces mots : « c’est la loi ». Il a enfin compris. Celui dont la seule évocation faisait naître tant de peurs, tant de rancœurs, tant d’hostilité, celui que lui, l’enfant arabe qui avait tant de mal avec la langue française, nommait Si Laloi, n’était pas un homme, mais tous ces hommes- là. Et bien plus encore. La loi, c’est elle, c’est madame Lafrance. C’est celle dont souvent il admire le buste qui trône à l’entrée de la mairie du village. Une femme qui serait plus puissante que n’importe quel homme. Que tous les hommes de la tribu. »[131]

---

[130] الرواية ص 78."من هو؟ من يكون هذا الرجل الذي يفكر فيه كل ليلة، الذي يكون مصدر آلامه و تعاسته؟ الفضول يسيطر عليه، هو يريد فقط رؤيته، الاقتراب منه، إعطاء وجه لهذا الاسم القوي، ذو النفوذ العالية. الذي بمجرد ذكر اسمه، تتوقف المحادثات و تتشتت الأنظار." ترجمة شخصية.

[131] الرواية ص83/82."في أحد الأيام صباحا، و جد الطفل نفسه في وسط أحد التجمعات متبعين ذلك الرجل من قبيلتهم المكبل و الذي كان سيُأخذ إلى سجن كايان. ذلك الرجل كان محكوما عليه بالأشغال الشاقة و ذلك لعدم احترامه لممثل مدام لافرانس. الطفل سمع أحد الجنود قائلا: "إنه القانون.". فقد فهم الطفل أخيرا أن الذي كان يثير خوف الكثيرين و حقدهم و أن الذي كان يسميه الطفل سي لالوا، هو لم يكن شخصا واحدا، و إنما هو جميع هؤلاء الرجال. القانون هو مدام لافرانس، هي التي كان يتأمل الطفل في تمثالها في مدخل دائرة القرية. هي المرأة الأقوى من جميع رجال القبيلة." ترجمة شخصية.

في الفصل العشرين، تحدثت الساردة عن " بيير" (Pierre) الذي كان صديق الطفل، فتقول أن " بيير " كان يقطن في أسفل المدينة العربية، في الحي الأوروبي. أما الطفل فكان يسكن على بعد بعض الأمتار في القصبة. ففي بعض الأحيان، يقوم "بيير" بمرافقة الطفل إلى منزله و ذلك بدون أن يخبر والدته، فعند وصولهما إلى المنزل، يدخل الطفل أولا و " بيير " يكون وراءه، حيث تستقبله والدة الطفل بابتسامة الترحيب و تقدم له الشاي بالنعناع و الفطائر التي تطلق رائحة شهية تميز منزل الطفل. و تقوم جدة الطفل بالترحيب به، حيث هي ترتدي دائما ملابس بيضاء اللون، و تقوم بعجن بين أصابعها الشعيرية (الخاصة بالشوربة)، طوال اليوم.

« Certains jours, il arrive que Pierre, sans le dire à sa mère qui tremble pour lui en ces temps troublés, accompagne l'enfant jusque chez lui. Ensemble, après avoir passé les barrages des militaires, ils parcourent les ruelles de la vieille-ville. Quand ils arrivent devant la maison, après avoir poussé la porte, l'enfant précède son ami à l'intérieur du vestibule qui s'ouvre sur un patio lumineux, tapissé de mosaïques blanches et bleues. Là, il est accueilli par le sourire de la mère de l'enfant. Par les odeurs, pour lui caractéristiques de ces lieux, du thé à la menthe et des beignets. Par les paroles de bienvenue de la grand-mère, tout de blanc vêtue, assise sur une peau de mouton et qui, tout le jour, pétrit et roule entre le pouce et l'index, des petits bouts de pâte dont elle fait des vermicelles. »[132]

فهنا تظهر لنا الساردة أن " بيير " يقوم باكتشاف خصائص المجتمع الجزائري الذي يتسم بحسن الضيافة و الكرم حتى و إن كان "بيير" هو فرنسي أي ينتمي للعدو المسؤول عن جميع آلام المجتمع الجزائري. و تواصل الساردة قائلة بأن " بيير " يتمنى أن يفهم ما كانت تقوله له جدة الطفل، فهو لا يتكلم العربية و يعرف بالكاد بعض الكلمات التي

[132] الرواية ص 112."في بعض الأيام، يحدث أن "بيير"، بدون أن يخبر والدته التي تخاف عليه كثيرا، أن يذهب مع الطفل إلى منزله. معا و بعد إجتياز حاجز الجيش، يعبران عبر طرقات المدينة القديمة. و عندما يصلان أمام المنزل؛ يدخل الطفل أولا في البهو الذي يطل على وسط الدار المضيء، ذو الفسيفساء البيضاء و الزرقاء اللون. تستقبله الأم بابتسامة و بالروائح التي تميز ذلك المكان، مع الشاي بالنعناع و الفطائر، و بجمل الترحيب من طرف الجدة ،المرتدية ثيابا بيضاء، الجالسة و التي تعجن بين أصابعها الشعيرات." ترجمة شخصية.

تعلمها بعد أن سمعها كثيرا في الشارع و في المدرسة، ففي المدرسة لا تدرس اللغة العربية و هو لا يعلم لماذا.

« Il regrette de ne pas comprendre ce qu'elle lui dit. De ne pas pouvoir lui parler. Il n'a jamais appris l'arabe. A peine quelques mots. Les plus courants. Ceux qu'il a retenus à force de les entendre dans la rue ou dits par son ami. A l'école, on n'enseigne pas l'arabe. Il ne sait pas pourquoi. »[133]

فهنا تبين لنا الساردة أن اللغة الفرنسية (لغة المستعمِر) كانت تُدرس في المدرسة أما اللغة العربية (لغة الجزائريين) لم تكن تدرّس في المدارس و ذلك لهدف محوها و استبدالها باللغة الفرنسية.

في الفصل الثاني و العشرون، ذكرت الساردة الحادثة الأليمة التي حلت بوالد الطفل، حيث شاهده في القرية مقيد و يقوده الجيش الفرنسي، ثم في ساحة القرية شاهده مع رجال آخرين راكعين نحو الحائط، رافعين أيديهم فوق رؤوسهم، الطفل رأى كيف قاموا بضرب أبيه، فهو كان مختبئاً وراء شجرة. منذ ذلك اليوم و الطفل يشعر دائما بمرارة في فمه لا يُذهبها أي شيء، مذاق مر و حامض في نفس الوقت، فقد قام الجنود الفرنسيين بشتم الأب بجميع الألفاظ الدنيئة و الحقيرة، فالطفل قد رأى و سمع كل شيء، و في المساء عندما دخل الأب إلى المنزل لم يقل شيئا و لما أفاقوا في الصباح، كان الأب قد رحل و لم يعد يوما.

« L'enfant, lui, sait. Un jour, quand ils vivaient encore au village, il a vu son père traîné dans la rue par des militaires. Puis, sur la place, il a vu, parmi d'autres hommes du village, son père agenouillé face à un mur, les bras sur la tête. Il a vu son père frappé. A coups de pied. A coups de crosse. L'enfant était caché derrière un arbre. Cela a duré longtemps. L'enfant n'a pas bougé. C'est depuis ce jour-là qu'il a dans la bouche un goût étrange que rien ne

[133] الرواية ص 112."هو يتأسف لعدم فهمه لما تقوله له جدة الطفل و عدم قدرته على إجابتها، فهو لم يتعلم أبدا العربية، بالكاد بعض الكلمات المتداولة كثيرا و التي سمعها في الشارع أو من طرف صديقه. في المدرسة، لا تُدرّس اللغة العربية و هو لا يعلم لماذا." ترجمة شخصية.

peut dissiper. Un goût à la fois acide et amer. L'enfant a nettement entendu ce que disait l'officier à ses soldats. Il en a retenu chaque mot : « les bicots, quand ils ne sont pas agenouillés à vos pieds, ils sont debout derrière vous, prêts à vous planter un couteau dans le dos ! Surtout ne l'oubliez pas ! ». L'enfant a compris ces mots. Et lui non plus ne les a pas oubliés. C'est aussi ce jour-là qu'il a appris que son père n'était qu'un sale bougnoule. Un salopard de fellaga. L'enfant a tout vu. Tout entendu. Mais quand son père est rentré le soir, le visage tuméfié, il n'a pas dit un mot. Le lendemain, lorsqu'ils se sont réveillés, le père n'était plus là. »[134]

فهنا تشرح لنا الساردة نوعاً آخر من المعاناة التي عاشها الطفل، فقد رأى كيف أهانوا والده و ضربوه أمام عينيه، مما كان سببا في رحيل الأب عن المنزل، ذلك أنه يعد منذ ذلك اليوم.

و تطرقت أيضا الساردة في نفس الفصل إلى عمل الطفل من أجل مساعدة أمه في مصاريف البيت، من أجل إيجاد ما يأكله هو و والدته و إخوته. فكان يذهب كل صباح إلى المدينة الأوروبية و كان يتقاضى بعض المال مقابل حمل سلة النساء الفرنسيات في السوق، و بذلك المال قام بشراء لوازم تلميع الأحذية، فكل صباح كان يجلس تحت الشجرة أمام مدخل القهوة و ينتظر قدوم الفرنسيين ليقوم بتلميع أحذيتهم، فكان يطأطئ رأسه، يعمل بجد، راكع على ركبتيه و يقوم بالتلميع حتى يظهر لمعان الضوء في الحذاء.

« Pour aider sa mère à nourrir ses frères et ses sœurs, l'enfant travaille. Lui aussi part chaque matin dans la ville européenne. Avec l'argent gagné en

---

[134] الرواية ص 132."عندما كان يعيش الطفل في القرية، شاهد والده مقيد من طرف الجنود في الطريق، و في الساحة رأى والده بين العديد ن الرجال راكعا على ركبتيه مقابل الحائط و ذراعيه فوق رأسه. لقد شاهد كيف ضربوا والده، فهو كان مختبئا وراء الشجرة و لم يتحرك. فمنذ ذلك اليوم و الطفل لديه مذاق غريب في فمه لا يذهبه أي شيء، مذاق حامض و مر في نفس الوقت. الطفل سمع جيدا ما كان يقوله الضابط لجنوده، لقد حفظ كل كلمة: "عندما لا تنحني عند أرجلكم هذه الحثالة، فهم حتما خلفكم يريدون طعنكم في ظهركم، تذكروا هذا جيدا!". الطفل فهم هذه الكلمات و هو أيضا لم ينساها. فذلك اليوم عرف أن أباه ليس سوى حثالة. فالطفل قد رأى و سمع كل شيء. و عند عودة والده إلى المنزل مساءاً لم يقل شيئاً. و في الغد عندما أفاقوا لم يجدوا والدهم، فقد رحل." ترجمة شخصية.

portant les paniers des femmes à la sortie du marché, il a acheté des brosses et des boites de cirage. Avec quelques planches, il a fabriqué une boîte en bois pour les transporter. Chaque matin, il s'installe sous un arbre, près de la porte d'un grand café. Il attend. Il tape sur sa boite « *Ciri Missieu ! ciri Missieu ! Comme la glace de Paris !* » En entrant ou en sortant du café, des hommes l'appellent : « *Yaouled !* » Il se précipite. Il sort de sa boîte ses instruments. Soigneusement, vigoureusement, consciencieusement, il cire les chaussures des hommes qui ne le regardent pas. Qui fument ou discutent pendant qu'il s'active à leurs pieds. Qui lui jettent quelques centimes quand il a fini. « *Ciri Missieu ! Ciri Missieu ! Comme la glace de Paris !* ». Il baisse la tête, agenouillé lui aussi comme son père, il courbe les épaules, s'applique, s'applique à brosser, à frotter, à lustrer jusqu'à capturer la lumière. »[135]

فتظهر لنا الساردة هنا المذلة التي كان يعيشها الطفل (المجتمع الجزائري) يوميا في المدينة الفرنسية من أجل الحصول على بعض المال حتى لا يموت جوعا هو و إخوته و أمه. و هذا ما يدل على أنّ الشعب الجزائري كان يملك فقط ما يستطيع من خلاله شراء الأكل حتى لا يموت جوعا، أي بضع دنانير فقط، و حتى الأطفال كانوا يعملون لتلبية احتياجات العائلة.

في الفصول الأخيرة من الرواية، وصفت لنا الساردة كيف و أخيرا بعد 132 سنة من الاحتلال الفرنسي للجزائر، أصبحت الجزائر و أخيرا حرة، فذكرت لنا الساردة في الفصل الرابع و العشرون، كيف كان الطفل يراقب رحيل الفرنسيين في الباخرات من الجزائر.

---

[135] الرواية ص135."حتى يساعد أمه في النفقة على إخوته و أخواته، بدأ الطفل في العمل. فكان يذهب كل صباح إلى المدينة الأوروبية بهدف حمل سلال النساء، و في المقابل كان يتقاضى بعض الدنانير التي اشترى بها أدوات تلميع الأحذية. و قام بصنع صندوق كبير أين وضع تلك الأدوات لحملها. فكل صباح كان يجلس تحت شجرة أمام باب المقهى الكبير و كان ينتظر. ينادي بأعلى صوته: "ciri missieu!" لمّع حذاءك سيدي مثل مرآة باريس. فكان الرجال عند دخولهم أو خروجهم من المقهى ينادونه: "يا ولد"، فكان يسرع في الذهاب إليهم مع علبة أدواته و كان يلمع الحذاء بإتقان و بدقة في حين أنّ الرجال لا ينظرون إليه حتى؛ فكانوا يتحدثون فيما بينهم أو يدخنون سيجاراتهم. و كانوا يعطونه بعض السنتيمات عندما ينتهي. فهو كان يعمل مطأطئاً الرأس، راكعا مثل والده عندما ضُرب، منحني الكتفين، يعمل حتى يظهر لمعان الضوء في الحذاء." ترجمة شخصية.

فقد كانت السفن الفرنسية تأتي كل يوم لترحيل أكبر عدد ممكن من الفرنسيين. ظل الطفل يتأمل ذلك المنظر حتى غادرت آخر سفينة فرنسية من الجزائر. فقد رحل العدو الفرنسي و للأبد، و لكن أشارت الكاتبة إلى أنّه لم تظل هناك أي طفولة في شخصية الطفل فهو لم يعد يثق أبدا فيما قد يحصل غدا. و هذا راجع إلى الآلام الشديدة التي عاشها خلال فترة الاستعمار.

« L'enfant ferme les yeux. Il n'y a plus assez d'enfance en lui pour faire confiance au jour qui vient. »[136]

فهنا تحاول الساردة القول بأن الطفل قد عاش مآسي كثيرة، لا يمكن تحملها و لا تصورها، فهي قد غيرت من طبيعة ذلك الطفل الذي أصبح يخشى كل شيء لكثرة ما شاهد و عاش من آلام. فتظهر لنا هنا أنّ الشعب الجزائري أصبح لا يثق في شيئا بعد كل ما رآه جرّاء الاستعمار الوحشي الذي عرفه لسنوات طويلة. فقد فَقَدَ الأمل كليةً.

في الفصل الأخير من الرواية، يقوم الطفل باستعراض جميع الأحداث التاريخية في ذاكرته، المرافقة بالأبطال الذين قدموا حياتهم من أجل رؤية هذا البلد حراً و مستقلاً. فالطفل يميز جيدا رجلاً على حصانه الأبيض، ذو البرنوس الذي يشبه من بعيد أجنحة طائر، و رأسه ملفوف بعمامة مشعة، من خلال هذا الوصف نرى أن الطفل يتحدث عن البطل الأمير عبد القادر الذي كان له حضور جد قوي و مخيف في نفس الوقت.

« Parmi eux, l'enfant distingue très nettement un homme sur un cheval blanc. Les pans de son burnous volent autour de lui comme les ailes d'un oiseau. Il a la tête enserrée dans un turban immaculé, les yeux sombres et perçants. »[137]

---

[136] الرواية ص 146."أغمض الطفل عينيه. فلم تعد هناك أي طفولة فيه حتى يثق في ما قد يحدث غداً." ترجمة شخصية.

[137] الرواية ص 150."من بينهم يميز الطفل رجلا فوق حصان أبيض اللون، مرتديا برنوسا، الذي يحوم حوله كأجنحة عصفور. رأسه ملفوف في عمامة ناصعة و له أعين جد غامقة و حادة." ترجمة شخصية.

و الطفل يرى أيضا بين كل المحاربين الأقوياء، الشجعان، امرأة ذات الشعر الأحمر، فهنا الكاتبة تتحدث عن كاهنة التي جاءت من الشرق الجزائري المعروفة بشجاعتها و جرأتها و حبها للوطن. ثم تصف الكاتبة كيف أن الطفل قد رأى نهاية المعارك، انطفاء النيران المشتعلة، الهدوء العام المخيم، كيف أن الموتى كانوا يسجدون سجود الشكر من أجل حرية الجزائر، الذين قدموا حياتهم من أجل الاستقلال. ثم ليتأكد من الاستقلال، يذهب الطفل جريا نحو البحر ليشاهد ذهاب السفن، ليشاهد صفاء الماء و نقاوته و أن الأيام السوداء قد ذهبت بدون رجعة.

« L'enfant est debout sur le rivage. Il a les yeux ouverts à présent. Il sait qu'il ne rêve plus. »[138]

فمن خلال كل هذه الدراسة، نستخلص إلى أن الطفل؛ أي الشعب الجزائري قد تحمل جميع أنواع التعذيب، الإهانة، الفقر، الجهل، المعاناة بشتى أشكالها. فقد كان محروما من أدنى حقوقه، يُعذب دائما بطريقة أو بأخرى، متحملا في صمت جميع أشكال الاضطهاد. و كل هذا كان في سبيل الحصول على الاستقلال، إذ أنه لم يخضع و لا يوما لقواعد الاستعمار، فقد ناضل و جاهد إلى أن تحقق في الأخير الحلم و شاهد وطنه مستقلا بعد 132 سنة من المعاناة الكبيرة.

[138] الرواية ص 152."الطفل واقف على الشاطئ، فاتحا عينيه و يشاهد. هو يعلم أنه لا يحلم الآن." ترجمة شخصية.

المبحث الخامس: رمزية "مدام لافرانس"

في هذا المبحث سنتحدث عن " مدام لافرانس " التي هي تشخيص لفرنسا. فالساردة تحاول أن تظهر لنا سياسة الفرنسيين المطبقة في الجزائر و ذلك بهدف محو الهوية الجزائرية و استبدالها بالثقافة الفرنسية حتى تحقق مرادها و تحتل الجزائر بالكامل.

في بداية الفصل الثالث من الرواية، بدأت الساردة بالحديث عن شخصية "مدام لافرانس" (Madame Lafrance) و ذلك فور قدومها إلى الجزائر، أي بعد إحتلالها، حيث أنها بدأت بوصفها قائلة أنها تتقدم، مستقيمة، فخورة متعاظمة ووقحة، متعجرفة، مرتدية ثوب النزاهة البريئة والسذاجة، هي تتقدم، معروفة من طرف الجميع، الكل يفسح لها المجال لكي تمر، الجميع ينحني لها، الجميع يحترمها، فهي تتقدم على الطرقات التي بنتها وأسستها من وعود كاذبة و احتيال إنها هي البارعة في إحتيالاتها، ذات الخطابات المليئة بالكبرياء والغطرسة.

« Elle avance. Droite, fière, toute de morgue et d'insolence, vêtue de probité et de lin blanc, elle avance. C'est elle, c'est bien elle, reconnaissable en ses atours. Tout autour d'elle, on s'écarte. On s'incline. On fait la révérence. Elle avance, madame Lafrance. Sur des chemins pavés de mensonges et de serments violés ; elle avance. C'est elle, c'est bien elle, dans l'habilité de ses détours, dans l'arrogance de ses discours. »[139]

وتواصل الساردة قائلة أن الكل يمشي وراءها، الكل يخافها، الكل يطيع أوامرها، وحضورها وحده يُخلف النظام، أما الشعب البربري فيجب عليه أن يبتعد، أن ينحني لها احتراما وإجلالا !

[139] الرواية ص19."هي تتقدم، واقفة، فخورة، متعاظمة و وقحة، مرتدية ثوب النزاهة ذو اللون الأبيض. الجميع يعرفها و يفسح لها المجال لتمر، الكل ينحني لها باحترام كبير. فهي كانت تمشي على الطرقات التي شيدتها بالكذب و الوعود الكاذبة. فهي البارعة في الإحتيالات و المتغطرسة في خطاباتها." ترجمة شخصية.

« Tous derrière elle ! Et vous, peuplades barbares, écartez-vous, prosternez-vous ! Déposez à ses pieds tributs et actes d'allégeance ! Quel nul maraud n'ait l'audace de se dresser sur son chemin : elle avance ! »[140]

"مدام لافرانس " هي جد قوية، لا تُقهر، جد واثقة من نفسها، فهي تواصل تقدمها فوق الطرقات والأراضي المحروقة، الطرقات المليئة بالأشخاص المعذبين والجثث المعذبة. ولكنها لا تراهم، لا ترى دموع الأمهات وأيادي الأطفال الممدودة للصدقة. هي تخلف دائما وراءها سحابا من الرماد والغبار ورائحة الدخان والحرائق. وتعقب الساردة قائلة بسخرية أنها أم الفنون، القوانين والسلاح. هي لا تسمع صراخ الرجال، النساء والأطفال المحجوزين في المغارات التي تحترق. لا شيء يستطيع إيقافها، لأنها البنت البكر للكنيسة، فهي تمثل العدل والنور ومهمتها هي الإيتاء بالحضارة لهذه الأرض المتوحشة أين يجب عليها نشر نورها بالكامل.

« Sûre d'elle, impavide, elle avance sur des terres brûlées, sur des chemins jonchés de corps suppliciés, de cadavres mutilés. Elle ne les voit pas. Elle ne voit pas les larmes des mères et les mains tendues des enfants. Elle avance, impérieuse et impériale. Laissant derrière elle des nuages de cendre et de poussière, des odeurs de poudre et de fumée. Elle est la liberté guidant le peuple. Elle est la mère des arts, des armes et des lois. Elle n'entend pas les cris des hommes, des femmes et des enfants enfermés dans les grottes enfumées. Elle n'entend pas les supplications, les sanglots et les râles. Rien, rien ne doit la détourner. Elle est fille aînée de l'église. Elle est lumière. Elle est justice, elle est la justice aveugle et sourde. Et sur cette terre sauvage, elle vient, généreuse, souveraine, dispenser ses lumières. »[141]

---

[140] نفسه ." الجميع خلفها! حتى الشعب البربري عليه أن يبتعد و أن ينحني لها! و أن يقدم لها غرامة تعبيرا عن الإخلاص! إنه الحقير الذي يتجرأ على الوقوف في طريقها؛ هي تتقدم!" ترجمة شخصية.

[141] الرواية ص 20."واثقة من نفسها، هي تمشي على الأراضي المحترقة، على الطرقات المليئة بالجثث المبتورة و المرمية. هي لا تراهم، لا ترى دموع الأمهات أو أيادي الصغار ممدودة. تواصل تقدمها و كأنها إمبرطورة تاركة خلفها سحابا من الرماد و الغبار و روائح الحريق. فهي الحرية التي تقود الشعب، هي أم الفنون، الأسلحة و القوانين. طبعا هي لا تسمع صراخ الرجال، النساء و الأطفال المغلق عليهم في المغارات المحترقة. لا تسمع توسلاتهم و بكائهم. فلا

فمن خلال كل هذا الوصف، نجد أن الساردة تتكلم بسخرية عن شخصية "مدام لافرانس " فبالرغم من وحشيتها فهي العدل بنفسه والكلمة الأخيرة ترجع لها دائما وأن مهمتها في الجزائر هي تطويرها و إقام حضارة فيها من خلال قتل شعبها، حرق أراضيها و إبادة كل من يقف عقبة في تحقيق مشروعها الحضاري!

ف"مدام لافرانس" قامت بكل ما هو وحشي و بربري في الجزائر و حتى النساء و الأطفال كانوا مضطهدين، فقد استعملت جميع الوسائل التي لا يستوعبها العقل البشري و مع ذلك هي تدّعي أنها أم الفنون و الحضارات و أنها قدمت إلى الجزائر بهدف تطويرها و جعلها بلدا متحضرا.

أما في الفصل الرابع فقد تغيرت كلية صورة " مدام لافرانس " فتصفها الساردة أنها مهزومة، ثيابها جد متسخة، ممزقة، وجهها ملطخ ويحمل أثار الرماد، هي تطلب النجدة، هي تتمايل، لا تستطيع النطق ولو بكلمة واحدة.

« C'est madame Lafrance. Ses vêtements sont sales, déchirés çà et là, et son visage porte des traces de poudre et de fumée. Les bras levés comme pour quémander du secours, madame Lafrance titube. Madame Lafrance venue trouver refuge auprès des siens est hors d'haleine. Aucun mot ne parvient à franchir ses lèvres »[142].

فهنا تقوم الساردة بإظهار أن هذه الشخصية القوية والجبارة انهزمت أخيرا، حيث أنها ذكرت لا حقا أنه "الأمير عبد القادر" من قام بمقاومتها وتهديد سلامتها وأمنها في الجزائر.

شيء سيغيرها. هي البنت البكر للكنيسة، هي النور، العدل الذي لا يرى و لا يسمع. ففي هذه الأرض المتوحشة هي جاءت بكرمها حتى تنشر نورها." ترجمة شخصية.

[142]الرواية ص 24."إنها مدام لافرانس، ثيابها جد متسخة، ممزقة و وجهها يحمل علامات الرماد و الدخان، هي رافعة ذراعيها و كأنها تطلب النجدة، هي متمايلة لا تستطيع النطق و لا بكلمة واحدة." ترجمة شخصية.

قامت الساردة في بداية الفصل السادس بالحديث عن "مدام لافرانس"، كيف كان تتصرف وكأنها في وطنها أو تقريبا في وطنها. حيث أنه توجد أماكن لا يمكن أن تخاطر وتزورها مثل المدينة القديمة، فهي تخاف أن تأخذ طرقاتها الضيقة.

«Madame Lafrance est partout chez elle. Partout ou presque. Il est cependant des lieux dans lesquels elle ne s'aventure pas. D'abord, la vielle- ville, la citadelle, avec ses maisons agrégées. »[143]

هنا تظهر لنا الساردة أن "مدام لافرانس " تعرف في أعماقها أنها لم تكن تتواجد في وطنها والدليل أنها تخاف زيارة المدن القديمة، فالفرنسيين لم يخاطروا أبدا بالتواجد في مثل هذه الأماكن بالرغم من قوتهم وعتادهم الحربي.

فلفرض سيطرتها وقوتها قررت "مدام لافرانس" بإعادة تسمية طرقات هذه المدن القديمة، فمثلا: عين الحجل أصبحت la fontaine des veuves، شارع لالة خديجة العريانة أصبح rue de la toute-nue، شارع بيت المال، شارع علي خوجة وآخرين بالطبع... أصبحوا موجودين إلا في ذاكرة الشعب الجزائري الذين يجهلون التسميات الجديدة.

« La rue Ain el Hadjel ou rue de la Fontaine des Veuves, la rue Lalla Khadidja el aaryana ou rue de la « toute- nue », la rue Beit el Mel, la rue Ali Khodja et tant d'autres, n'existent plus que dans les mémoires des habitants qui ignorent les nouvelles appellations. »[144]

ف " مدام لافرانس " لا يمكنها أن تتجول بحرية في هذه الشوارع، لأنها تخاف على حياتها، فكانت تفضل التواجد على الشواطئ ، أين تستمتع بالجمال والهدوء والطمأنينة فهي تتواجد في جميع الأماكن وكأنها وطنها الأصلي أو تقريبا. و من هنا تظهر لنا

---

[143] الرواية ص 33."مدام لافرانس هي في وطنها أو تقريبا. حيث أنّه هناك أماكن لا تخاطر و تقوم بزيارتها مثل المدينة القديمة، القلعة و منازلها." ترجمة شخصية.

[144] الرواية ص 34."شارع عين الحجل أصبح شارع la Fontaine des veuves، شارع لالة خديجة العريانة، شارع بيت المال، شارع علي خوجة و آخرين أصبحوا موجودين فقط في ذاكرة السكان الذين يجهلون التسميات الجديدة." ترجمة شخصية.

الساردة بنية "مدام لافرانس " التي تظهر لنا قوية و شديدة، إلّا أنها تعلم أنه لا يجب المخاطرة في بعض الشوارع والمدينة القديمة.

في الفصل السابع، تقدم لنا الساردة شخصية " مدام لافرانس " كمعلمة في القسم، فتقول أنها عندما تدخل إلى القسم، جميع التلاميذ يقفون وينتظرون إشارتها ليجلسوا من جديد، الكل ينظر لمعلمتهم، أما هي فتقف عند الباب لدقائق ثم تدقق في كل القسم حتى تتأكد من أن النظام يسوده. تجلس في مكتبها وتقوم بالمناداة، تجد في أغلب الأحيان صعوبة في نطق بعض الأسماء، فتعيد نطقها مرتين أو ثلاثة، تبدأ بدرس التربية المدنية، ثم تطلب من التلاميذ قبل نقله على الكراس أن يرددوا جملة "أحب وطني فرنسا" بالفرنسية.

«Madame Lafrance entre dans la classe. Tous les écoliers se lèvent. Ils attendent qu'elle leur fasse signe de se rasseoir. Ils ont les yeux fixés sur la maîtresse. Elle s'arrête un instant sur le pas de la porte. Elle parcourt la salle des yeux, pour s'assurer de l'ordre que sa seule présence impose. Elle va vers son bureau. Elle fait l'appel. Elle a du mal à prononcer certains noms. Elle doit s'y reprendre à deux fois. Puis elle demande aux élèves de sortir leurs cahiers. Et, comme chaque lundi, elle commence par la leçon d'instruction civique. Un à un, avant de la recopier, les élèves doivent répéter après la maîtresse la phrase écrite au tableau. « J'aime mon pays la France ». »[145]

تقول الساردة أنه عندما يقوم التلاميذ بنطق هذه الجملة، يجدون صعوبة في بعض الكلمات، ف " مدام لافرانس " تعرف أن هؤلاء التلاميذ ليس لهم نفس القدرات الفكرية مثل التلاميذ الفرنسيين، فهي تتذكر نصائح وإرشادات المفتش في بداية السنة: "نحن نريد فقط المبادئ، تعليمهم مبادئ اللغة الفرنسية، المعلومات الأساسية فقط".

---

[145] الرواية ص 40/39."مدام لافرانس تدخل إلى القسم، فيقف جميع التلاميذ و ينتظرون إشارتها لإعادة الجلوس. أنظارهم تتجه كلها نحو مدام لافرانس. تقف للحظات عند الباب و تدقق في كل القسم للتأكد من أن النظام يسوده. تجلس في مكتبها و تقوم بالمناداة أين تجد صعوبة في نطق بعض الأسماء التي تعيد نطقها مرتين. بعدها تطلب من التلاميذ إخراج دفاترهم و ككل يوم إثنيين هي تبدأ بدرس التربية المدنية و قبل نقله على الكراس يردد كل التلاميذ الجملة المكتوبة على السبورة واحدا فواحدا: "أحب وطني فرنسا"." ترجمة شخصية.

« Ces enfants n’ont pas, il faut le savoir, les mêmes capacités intellectuelles que les nôtres… bien sûr, bien sûr, ne l’oublions pas, il ne s’agit pas de leur faire acquérir les subtilités de notre si belle langue ! Elle se souvient alors des recommandations de l’inspecteur au début de l’année scolaire. « Comprenez bien, madame, les rudiments ! Les rudiments rien de plus ! »[146]

فالفرنسيون كانوا يرون أن التلاميذ الجزائريين متأخرين ذهنيا، وليسوا بالأذكياء، ولم يفهموا أبدا أن هذه الصعوبات راجعة إلى مضامين الدروس التي هم ضدها بالكامل. أمّا" مدام لافرانس " فعليها أن تحتفظ بكامل هدوئها، لأن من شيمها السمع والصبر، هي متفهمة، تشفق على هؤلاء التلاميذ، تتصرف وكأنها أمهم.

« Ecoute et patience sont les deux vertus cardinales de madame Lafrance. Et surtout, elle a l’habitude de défis autrement plus risqués. Compatissante, compréhensive, presque maternelle- car madame Lafrance est belle, madame Lafrance est bonne. »[147]

فنلاحظ في هذا الفصل أن الساردة تعلق بطريقة غير مباشرة و بأسلوب ساخر عن شخصية "مدام لافرانس" المعلمة. فبالرغم من مضمون الدروس المخالف تماما للثقافة الجزائرية، هي ترى أن التلاميذ الجزائريين أغبياء مقارنة بالفرنسيين، و لأنها جد حنونة و متفهمة، هي تسايرهم ببطء حتى يتعلموا ما تقدمه لهم.

في الفصل التاسع ذكرت الساردة كيف أن شخصية " مدام لافرانس " هي جد متعصبة، فهي ترى أن ما تفعله في الجزائر هو واجب على البلدان المتطورة والمتحضرة نحو البلدان الفقيرة والمتخلفة، فهي لا تريد سماع رأي الآخرين الذين يرون في تصرفاتها انتهاكا لحرية الشعب الجزائري، قتله و تدميره. فالبعض قال: " لو أننا نكمل هكذا

---

[146] الرواية ص 41."هؤلاء الأطفال لا يملكون نفس القدرات العقلية مثل أطفالنا؛ يجب تذكر هذا جيدا. فنحن لا نستطيع تعليمهم لغتنا الجميلة بكل قواعدها! فمدام لافرانس تتذكر إرشادات المفتش في بداية السنة الدراسية: "تذكري سيدتي، المبادئ، المبادئ لا أكثر!"". ترجمة شخصية.

[147] نفسه. "السمع و الصبر هما من الشيم الأساسية لمدام لافرانس، و خاصة أنها تحدّت سابقا مواقف أكثر صعوبة. مشفقة، متفهمة و كأنها أم؛ مدام لافرانس هي جد جميلة و رائعة." ترجمة شخصية.

سنحصد من هذا الشعب الحقد والكراهية والخذلان". أمّا" مدام لافرانس " فهي جد متيقنة من نبل مهمتها.رغم أنها قررت و أعطت أوامر بتحويل كل ما يعترض طريقها إلى رماد و آثار. أي أن الساردة تظهر لنا هنا أن الفرنسيون كانوا جد متيقنين بما فعلوه من جرائم و مآسي في الجزائر.

« Profondément convaincue de la légitimité de ses actions et de la grandeur de sa mission, madame Lafrance n'a pas détourné les yeux quand à ses pieds ses hommes ont déposé des trophées sanglants. C'est son âme et conscience qu'elle a donné l'absolution à ceux qui, pour lui frayer un chemin, ne laissaient sur leur passage que cendres et ruines. »[148]

في الفصل الحادي عشر، ذكرت الساردة كيف أن " مدام لافرانس " قد فقدت جميع قوتها في الحروب الذي لم تتخيلها أبدا بهذه القوة و الصلابة و الكثرة. فهي تحتل كل الجزائر من الشمال إلى الجنوب، لكنها فقدت في المقابل قوة كبيرة. فهي رغبت بشدة الإستلاء على هذا البلد و جعله بلدها، فقد احتلته و ضحّت بالكثير من أجله. فهي ترى أينما مر رجالها قد نجحوا في استبدال البربرية بالحضارة، فبالنسبة لها قد نجح الإنسان في استعادة إفريقيا، إذن " مدام لافرانس " هي الآن في وطنها للأبد.

« De toutes ses forces, elle a désiré cette terre hostile. De toutes ses forces, elle a voulu la faire sienne. Et elle l'a conquise. Par le fer et par le feu. Au prix de mille sacrifices, au prix de mille mêlées sanglantes. Elle est à présent tout à elle. Partout, ses hommes ont fait place nette. Là où ils sont passés, la civilisation a supplanté la barbarie. L'Afrique enfin est redue à l'homme. Voici venus les Grands Temps nouveaux ! Madame Lafrance est maintenant chez elle. A jamais. »[149]

---

[148] الرواية ص 51."مدام لافرانس هي جد مقتنعة بشرعية ما تقوم به و بنبالة مهمتها، هي لم تدر وجهها عندما رأت الغنائم المليئة بالدم التي وضعها رجالها عند رجليها. فضميرها و روحها سمحوا لرجالها أن يتركوا رمادا و أثارا كل ما يعبرون عليه." ترجمة شخصية.

[149] الرواية ص 60."بكل ما أوتيت من قوة، هي أرادت هذه الأرض، أرادت أن تمتلكها؛ فاحتلتها بالسلاح و النار حتى و إن كان الثمن تنازلات كبيرة و اشتباكات ذات طابع دموي. في كل مكان قام رجالها بمحو كل شيء، أينما

فالساردة تشرح لنا هنا أن " مدام لافرانس " قد ضحت بالكثير و الكثير من أجل احتلال الجزائر من الشمال إلى الجنوب، و عندما حققت هذا، اعتقدت ظنا منها أن مهمتها قد انتهت و أنها قد حققت و أخيرا مرادها. فهي بدأت بترك بصمتها في كل الجزائر، فقد شيدت المباني و الطرقات، و سكك الحديد و الجسور، إذ اهتمت في الموضع الأول بالطرق و المواصلات حتى يستطيع جنودها التنقل و بكل سهولة و حرية في جميع أرجاء البلاد .و قامت بعد ذلك بتغيير المدن و ذلك بتشييد المباني العالية و الحضارية الفخمة و قامت بهدم كل ما يهدد الطابع الجمالي للبلاد. و قامت أيضا ببناء منازل جديد فخمة و طرقات جد حضارية للفرنسيين الأصليين الذين جاءوا من فرنسا، و من أجل تخليد ذكرى الرجال الذين كرسوا حياتهم من أجل هذه الحرب، قامت "مدام لافرانس " بتسمية الطرقات بأسمائهم مثل شارع Isly الموجود بالعاصمة الجزائر "إيزلي". و قد قامت ببناء منازل تطل على الحدائق من خلال ترك طابع هندسي فرنسي، و بالتالي "مدام لافرانس " ترى أنها قد نجحت في تحقيق مرادها و جعل هذا البلد بلدها التي تتحكم في كل ما يحدث فيه.

« Madame Lafrance a remodelé cette terre à son image. Villes et compagnes sont à présent et pour toujours, elle n’en doute pas un seul instant, façonnés à son empreinte. Et pour permettre à son sang de circuler, elle a créé des voies. Lentement, elle a tissé son réseau. Des routes larges, des kilomètres de voies ferrées, en premier lieu pour permettre le passage des troupes chargées de pénétrer au plus profond des territoires définitivement conquis, et en faciliter l’accès à tous ceux qui, venus de très loin parfois, vont y faire souche. Puis des ponts et des aqueducs monumentaux. »[150]

ذهبوا، فالحضارة أخذت مكان البربرية و إفريقيا أصبحت تتسم بطابع إنساني. فكل شيء قد تغير، و مدام لافرانس هي الآن في وطنها للأبد." ترجمة شخصية.

[150]الرواية ص61/60."مدام لافرانس غيّرت هذه الأراضي حسب صورتها، فالمدن و القرى أصبحوا الآن بالشكل الذي أرادته مدام لافرانس. فقد شيدت الطرقات الكبيرة، السكك الحديدية، و ذلك لتسهيل عملية التعمق في الأراضي الجزائرية، و للوصول إلى جميع المناطق، و شيدت أيضا الجسور و قنوات المياه العملاقة." ترجمة شخصية.

في الفصل الثاني عشر، تطرقت الساردة لما كانت تقوله "مدام لافرانس " للأطفال الجزائريين في المدرسة الفرنسية، فهدفها هو تحويلهم إلى فرنسيين صالحين، و هذا من كثرة حبها لهم، فالدليل أنها فعلت هذا دون يطلب منها أحد المساعدة و كانت تقول لهم أنها جاءت لجعلهم شعبا متحضراً، كانت تحب كثيرا كلمة الحضارة و ترددها كثيرا.

« Madame Lafrnace leur répète que c'est pour faire d'eux de bons petits français qu'elle est venue jusqu'ici, jusqu'à eux. Sans même qu'ils le lui demandé. Elle dit aussi qu'elle est venue pour les « civiliser ». Elle aime beaucoup ce mot. Elle le répète souvent. C'est donc pour les civiliser qu'on leur a enlevé leurs terres, afin d'y installer des français venus de France ? Sans doute pour qu'ils aient sous les yeux un exemple vivant de la civilisation »[151].

أظهرت لنا الساردة هنا، أن "مدام لافرانس " كانت تحاول دائما تبرير وجودها في الجزائر للتلاميذ العرب بقولها أنها تريد أن تحولهم إلى شعب متحضر و متطور.

فكانت "مدام لافرانس " تشرح لهم في كل مرة ما تنظره منهم، فكانت تكتب على الصبورة: التلميذ الجيد هو نظيف .يغتسل كل صباح .يتعلم اللغة الفرنسية .يعرف الحساب، يزرع الخضار و أشجار الفواكه .يحاول التحسين من نفسه ليصبح رجلا صالحا و نزيهاً.

« Pour bien leur expliquer ce qu'elle attend d'eux, madame Lafrance écrit au tableau : « le bon élève est propre. Il se lave tous les matins. Il apprend la langue française. Il sait calculer, cultiver les légumes et les arbres fruitiers. Il connaît l'Algérie, il aime la France, sa mère patrie. Il s'applique à devenir un homme utile et honnête. » »[152]

---

[151]الرواية ص 67."مدام لافرانس تقول لهم دوما أنه لجعلهم مثل الفرنسيين قد جاءت إليهم، حتى و بدون أن يطلبوا منها هذا. و تقول لهم أيضا أنها جاءت إليهم لجعلهم شعبا متحضراً، هي تحب كثيرا هذه الكلمة. إذن لجعلهم أكثر حضارة قامت بمصادرة أراضيهم و أعطتها للفرنسيين القادمين من فرنسا؟ بلا شك حتى يكون لهم مثالا يقتدون به أمام أعينهم." ترجمة شخصية.

[152]الرواية ص 68."من أجل شرح لهم جيدا ماذا تنتظر منهم، مدام لافرانس تكتب دائما في الصبورة: "التلميذ النجيب هو نظيف. يغتسل كل صباح، يتعلم اللغة الفرنسية، يتقن الحساب. يزرع الخضار و أشجار الفواكه، يعرف الجزائر، يحب فرنسا وطنه. يحاول أن يكون رجلا صالحا و نزيها."" ترجمة شخصية.

و هنا نرى أن ما تطلبه " مدام لافرانس " و كأنه بالشيء الجديد على ما تعود عليه التلاميذ الجزائريين.

في الفصل الواحد و العشرين، تتحدث الساردة عن المعسكرات المحروسة التي أقامها الجيش الفرنسي و الذي أجبر الجزائريين بالعيش هناك تحت مراقبتهم حتى لا يكون لهم أي اتصال مع المجاهدين و الثوار. و تشرح لنا الساردة أن " مدام لافرانس " لا تحب أن نحدثها عن هذه المعسكرات و لا تحب ذكر وجود هذه المعسكرات على ترابها، فهي لا تحب هذه الكلمة، بل هي تفضل كلمة مركز. فهذه الكلمة توافق أفضل أهدافها الإنسانية و تطلعاتها، فهي إذن مراكز مراقبة. في الأول كانت تفضل كلمة إيواء لأنها تدعي أنها تأوي لأشخاص الذين لا يملكون المنازل.

« Madame Lafrance n'aime pas qu'on lui parle de ces camps. Madame Lafrance n'aime pas trop qu'on évoque la présence de camps sur ses territoires. [...] Elle n'aime pas ce mot. Elle préfère le mot centre. Plus conforme à ses objectifs purement humanitaires. Ce sont donc des centres de surveillance, aménagés dans les zones de sécurité »[153]

فنلاحظ هنا أن " مدام لافرانس " لم ترد أبدا أن تظهر نواياها السيئة، بل أرادت أن تظهر بقناع المرأة الإنسانية، و أنها تحاول مساعدة الجزائريين المتشردين، الذين لا مأوى لهم و ذلك بإسكانهم في أكواخ و حمايتهم ليلا و نهارا. و ذكرت الساردة أيضا أن " مدام لافرانس " قد استعملت جميع الوسائل للوصول و لتحقيق أهدافها، فقد كانت تجيب على من يشك في نواياها الصادقة أنها قد قامت بإنشاء تلك المراكز مؤقتا من أجل إعادة بناء المدينة و تعميرها بطريقة حضارية. أين سيكون للشعب الحق في عيش حياة متطورة.

« Et pour bien montrer qu'elle refuse tout amalgame inconvenant, pour rassurer ceux qui doutaient de l'humanité de ses intentions, madame

[153] الرواية ص 124."مدام لافرانس لا تحب أن نحدثها عن المعسكرات، و لا تحب ذكر وجودها في ترابها الوطني. هي تفضل كلمة مركز التي توافق أفضل أهدافها الإنسانية. إذن هي مراكز مراقبة عُدّلت لتصبح مناطق محروسة." ترجمة شخصية.

Lafrance va expliquer à tous ceux qui s'en émeuvent, que ces c…. ne sont que la première étape d'un plan de rénovation rurale, un prélude à la mise en place de mille villages où ces malheureux vont enfin avoir accès à des conditions de vie moderne. »[154]

فكانت " مدام لافرانس " تعطي إجابة مقنعة لكل من كان يريد التشكيك في نواياها و إيقاعها في الفخ من أجل الإفصاح عن ما تريد فعله بالجزائريين. فقامت هنا الساردة بإظهار خبث و مكر الفرنسيين و كيف حاولوا بشتّى الوسائل التغطية عن أعمالهم الإجرامية.

نستطيع القول في آخر هذا المبحث أن الساردة قد تحدثت عن شخصية "مدام لافرانس" التي تمثل سياسة الاستعمار المطبقة في الجزائر. فبدأت في الأول بالإشارة إلى أن مهمتها في الجزائر هي تطويرها و إقام حضارة فيها و لكن بطريقة وحشية من خلال قتل شعبها، حرق أراضيها و إبادة كل من يقف عقبة في تحقيق مشروعها الحضاري. كانت تحاول دائما تبرير وجودها في الجزائر للتلاميذ العرب بقولها أنها تريد أن تحولهم إلى شعب متحضر و متطور. و كأن ما تطلبه "مدام لافرانس " هو بالشيء الجديد على ما تعود عليه الجزائريين. ثم ذكرت أنه يوجد من الجزائريين من كانت له الشجاعة للتصدي لها؛ مثل"الأمير عبد القادر" الذي هدّد سلامتها وأمنها في الجزائر. فـ "مدام لافرانس " تعرف في أعماقها أنها لم تكن تتواجد في وطنها والدليل أنها تخاف زيارة المدن القديمة. ثم أشارت الساردة إلى أن الفرنسيون كانوا جد متيقنين بما فعلوه من جرائم و مآسي في الجزائر، فقد حاولوا بشتّى الوسائل التغطية عن أعمالهم الإجرامية. و ذكرت الساردة أيضا أنه في مرحلة معينة، اعتقدت "مدام لافرانس " أنها قد نجحت في تحقيق مرادها و جعل هذا البلد بلدها التي تتحكم في كل ما يحدث فيه. إلاّ أن ما قد حدث لاحقا قد غيّر

[154] الرواية ص 126."لتظهر رفضها لأي خلط و لتطمئن الذين كانوا يشككون في إنسانية نواياها، مدام لافرانس شرحت للجميع أن هذه المعسكرات هي فقط مرحلة مؤقتة و ذلك لإعادة بناء القرى التي ستكون مرفقة بجميع الوسائل التي تمكن من الحصول على حياة سهلة و رغيدة." ترجمة شخصية.

مجرى الحياة في الجزائر. إذن باختصار، أظهرت لنا الساردة صورة وحشية و بربرية و همجية السياسة الفرنسية الاستعمارية المطبقة في حق الجزائريين.

الفصل الثالث:

مباحث الإيديولوجيا

المبحث الأول: مفهوم الإيديولوجيا

سنحاول في مبحثنا هذا تعريف الإيديولوجيا، دراسة علاقة الأدب بالإديولوجيا، ودراسة علاقة الرواية بالإيديولوجيا؛ و هذا لأجل دراسة إيديولوجية الساردة في روايتها.

استخدم مصطلح "الإيديولوجيا" لأول مرة من طرف المفكر "ديستوت دي تراسي" "Destutt De tracy" في كتابه "مشروع عناصر الإيديولوجيا" سنة 1801م، حيث أن جذر الكلمة لاتيني الأصل ينقسم إلى قسمين: Idéo و تعني الفكر و Logie و تعني علم، أي علم الأفكار. فقد كان اهتمام " دي تراسي"، ينصب على إيجاد مبحث يهتم بدراسة الأفكار و الوعي الذي يحمله الإنسان دراسة علمية مقننة، بعيدة عن تلك التصورات الكاذبة على حد تعبير "غورفيتش"، "الإيديولوجيا و البناء الفكري الإيديولوجي، قد وصفا أولا بأنهما خيالات أو بعبارة أبسط، الصورة الكاذبة التي يرسمها الناس عن أنفسهم"[155]. بمعنى أن النظام الفكري الذي يحمله الإنسان نابع بالدرجة الأولى عن تلك التصورات المنبثقة من الجانب النفسي له.

في القرن الثامن عشر، مع ظهور ما أطلق عليه بالمدرسة العقلانية، طرحت رؤى مختلفة تؤكد على قدرة الإنسان في تسيير شؤونه و ضبط أموره بمفرده:

"فالطبيعة زودت الإنسان بالعقل، و الناس متساوون لأنهم جميعا عاقلون، و كل إنسان قادر على التوصل إلى المعرفة و الحقيقة إذا ما استعمل عقله، و ليس في الطبيعة شيء غير قابل لأن يعرف، كل ما في الطبيعة طبيعي، العقل دوما و أبدا على حق وليس للإنسان سعادة إلا في انصياعه لمبادئه وحدها، و علة البؤس الإنساني في الجهل، و هذا الجهل ليس نتيجة قصور ذاتي في العقل، و إنما مرده الجبن و نقص

[155] جورج غورفيتش، المعاني المتعددة للإيديولوجيا في الماركسية، الإيديولوجيا –دفاتر فلسفية، ترجمة: محمد سبيلا و عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال. ط، المغرب 1999.

الرغبة في المعرفة، أو سياسة التعمية التي تريد الإنسان جاهلا، لأنها تريده ضائعا منصاعا"[156].

هكذا بدأ أول صدام إيديولوجي بين أيدلوجيا الأفكار و التقاليد الموروثة التي يستغلها الرهبان المتسلطون في تكريس مصالحهم و الهيمنة على جموع الناس و تغييب عقولهم، فالعقلانيون سعوا إلى تكون الإيديولوجيا مفهوما لعلم الأفكار و علما وضعيا و ذلك للتمييز بين الوعي الصحيح و الوعي الزائف، إلا أنهم "بدلا من عقلنة الإيديولوجيا، إنتهوا إلى إنشاء إيديولوجيا العقل، و ما كانوا يريدون تفسيره أصبح نفسه بحاجة إلى هذا التفسير"[157].

و نجد أيضا مفهوم فلسفي للإيديولوجيا، فقد ورد في الموسوعة الفلسفية ما معناه أن: "الإيديولوجيا نسق من الآراء و الأفكار السياسية و القانونية و الأخلاقية و الجمالية و الدينية و الفلسفية..." [158] هذا ما يشير إلى أن الإيديولوجيا منظومة أو نسق فكري عام مشكل من أنساق جزئية يحملها الوعي الإنساني و يعبر عنها في المحيط الاجتماعي، ومع مجيء "كارل ماركس " (1818-1883) "karl Marx"، شهد المفهوم تطورا واضحا، فقد تراوح مفهوم الإيديولوجيا عنده بين الوهم و المنهج الفكري أي بين كونها وهما، إلى كونها منهجا فكريا منبثقا عن علاقات اجتماعية مختلفة: "الإيديولوجيا إنعكاس مقلوب و مشوه، و جزئي و مبتور الواقع، و هي بذلك تعارض الوعي الإنساني الحقيقي"[159] و هو التصور نفسه الذي نجده عن "إنجلز" إذ يقول أن: "الإيديولوجيا هي

---

[156] جورج طرابيشي، الماركسية و الإيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت، 1971.

[157] المرجع نفسه.

[158] روزنتال.م.ويودين.ي، الموسوعة الفلسفية، الإيديولوجيا، دفاتر فلسفية، ترجمة م.سبيلاو ع. بن عبد العالي، دار توبقال. ط1 المغرب 1999.

[159] ماركس و إنجلز، الإيديولوجيا الألمانية –دفاتر فلسفية– مرجع سابق.

عمليـة يمارسـها المفكـر المـدعي بـوعي زائـف[...]" [160] بمعنـى أن "مـاركس و إنجلـز" يعتبران الإيديولوجيا نسقا فكريا زائفا كما حدّداها في علاقة الفكر بالواقع، دون إعطاء استقلالية لهذا عن ذاك، بل ووصلاه بمشروطية اقتصادية و اجتماعية.

من هنا يتضح أن "ماركس": "لم يأخذ المفهوم مباشرة من فلاسفة الأنوار رغم تشبعه بتعاليمهم، و إعجابه باتجاههم، بل استعار المفهوم الرائج في الأوساط الاشتراكية الباريسية، حيث الاستبداد، إلا أن ماركس، كان قبل كل شيء وارث الفلسفة الألمانية الهجلية بالخصوص، و كان أيضا متأثرا بالتيار الذي أوّل "هيجل" تأويلا ديمقراطيا يساريا، فكان لابد أن يتشبع عنده مفهوم الإيديولوجيا المأخوذ من العرف الفرنسي بمفاهيم غريبة عنه، و متأصلة في الفلسفة المثالية الألمانية"[161]. فماركس يؤكد أن حركة التاريخ الكوني لها أثرها في تشكل الوعي الإنساني و أن الإيديولوجيا لا تؤثر إلا من وراء الوعي، و لهذا لا نجده يهتم كثيرا بمن يختلق الإيديولوجيا و يؤسس لها بقدر ما يهتم بمعتنقها: "لأن الفرد الذي يرث الإيديولوجيا كعضو في طبقة أو كإنسان مثقف يكون أول ضحية من ضحاياها"[162].

فهذا هو الذي جعل ماركس يطور مفهومه للإيديولوجيا، من كونها وهما وقناعا زائفا إلى كونها نظرة للعالم من خلال الحركية التاريخية للكون، أو بعبارة أكثر دقة: "هي ضرورة التمييز بين التطوير المادي للظروف الاقتصادية في الإنتاج و الصيغ القانونية، السياسية، الدينية، الجمالية، الفلسفية التي يستطيع الناس من خلالها أن يعوا حقيقة هذا الصراع، وهذه الحركية، و أن يشتركوا في مباشرته كما جاء في كتابه "مساهمة في

---

[160] نفس المرجع السابق.

[161] عبد الله العروي، مفهوم الإديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط5، بيروت، 1993

[162] نفس مرجع السابق.

الدراسة النقدية لفلسفة السياسة"[163]. فالظروف الاقتصادية للإنتاج و متغيراتها هي ما تؤثر على الأشكال المختلفة التي تتخذها إيديولوجيا معينة.

مما تقدم، يتضح أن مدلول الإيديولوجيا ينحصر في الربط بين النشاط الاقتصادي، الذي تقوم به الطبقات الاجتماعية، أو تلك المعتقدات و التصورات و الأفكار في تمثلها الإبداعي، التي تشكل نسقا أيديولوجيا في الحياة الاجتماعية، و عاملا لتجسيدها في الأعمال الأدبية الروائية، فتبقى الإيديولوجيا في إطار النظرية الماركسية (فلسفة) تعبير عن مصالح معينة، محددة لمجموعتها حيث تتحكم سيكولوجية المصالح على التطلع المعرفي فكما يقول "باشلار" :

"Les idées de la classe dominante sont les idées dominantes".

أي أن أفكار الطبقة المسيطرة هي الأفكار المسيطرة. أمّا على حد تعبير ألتوسير "Louis Althusser": "الإيديولوجيا ليست شذوذا أو شيئا زائدا عرضيا في التاريخ، إنها بنية جوهرية أساسية بالنسبة للحياة"[164].

فهي إذن تمثلات بين الأفراد و محيطهم الاجتماعي الذي يحمل الإيديولوجيا التي يعتنقونها فهي تعني التحقق العملي، و هو تحقق يتكون عبر بنية مجتمعية، لتكوين اجتماعي محدد. و بهذا نستطيع القول بأن للإيديولوجيا مفهومين أساسيين:

فالمفهوم الأول هو أنها المنظر السلبي التي تظهر من خلاله، كأفكار سلبية يطغى عليها الوهم و الخيال الذي لا فائدة ترجى منه.

أما المفهوم الثاني، فيظهر في وظيفتها كأفكار إيجابية في العلاقات الاجتماعية والممارسات و الأنشطة الاجتماعية و السياسية و العقلانية.

---

[163] ابراهيم عباس، الرواية الغاربية (تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي)، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2003.

[164] لويس ألتوسير، الأجهزة الإيديولوجية للدولة، الأيديولوجيا –دفاتر فلسفية– مرجع سابق.

و في بحثنا هذا سنحاول ربط هذا المفهوم بالمفهوم الروائي؛ إذ أننا سنحاول إيجاد علاقة بين المفهومين.

المبحث الثاني: علاقة الأدب بالإيديولوجيا

إن دراسة علاقة الأدب بالإيديولوجيا يقودنا مباشرة إلى مفاهيم النظرية الماركسية التي تتمحور حول النزاعات الاقتصادية و الإرادية و يتقيد معها الأدب في علاقته بالإيديولوجيا على مستوى واحد، و هو مستوى الشكل (فالأدب هو شكل من أشكال خطابات الإيديولوجيا). "الأدب شكلا إيديولوجيا، و تكون الإيديولوجيا هي البنية الفوقية للنسق الفكري، و للوعي الاجتماعي، تلك البنية التي تعبر عن علاقات اجتماعية محددة، و هنا يكون الأدب شكلا تابعا لوجود سابق، هو وجود الإيديولوجيات"[165]، وبالتالي الأدب هو من إنتاج الإديولوجيا.

و لكن الأدب هو رقعة فنية "يحل فيها الخيال الأدبي جملة من المتناقضات الاجتماعية المادية و الروحية و التي لا نجد لها حلا في الإيديولوجيا العامة، أو أنه الفضاء الصراعي الذي تأخذ فيه عدة عناصر غير متجانسة شكلا معينا: شكلا يخص التناقضات على الرغم من أنها قائمة فيه، يبدأ العمل الأدبي من متناقضات الواقع ثم يعيد تنضيذ هذه التناقضات في سيرورته الأدبية، من حيث هو ممارسة متميزة ذات استقلال نسبي، ينقل وضع التناقض من مكان إلى آخر، و هي في انتقالها و بواسطته تجد حلها التخيلي. إن عملية الانتقال و إنتاج الحل التخيلي لا تتحدد بإرادة الكاتب بل بآلية الكتابة أو بالضرورة الداخلية التي تحكم السيرورة الأدبية"[166].

و بالتالي لزاما علينا أن نعرف العوامل المؤثرة على الظاهرة الأدبية المتعلقة بحقبة زمنية معينة، فيجب معرفة الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية لهذه الحقبة الزمنية، مع تحديد الفروق بين الحقبة الزمنية الحالية و السابقة، و بالتالي نحدد كيف حدث الوعي

---

[165] L.Goldman, pour une sociologie du roman, Gallimard منقول من طرف ابراهيم عباس،، الرواية المغاربية، المرجع السابق.

[166] د.فيصل دراج، دلالات العلاقة الروائية، دار كنعان للدراسات و النشر، دمشق، ط1،1993

الاجتماعي، و تاريخ تطور المستويات الاجتماعية و الاستقلال الذاتي لكل مستوى من مستويات الحياة الاجتماعية بمختلف أطوارها.

فالإنتاج الأدبي واقع مادي يتحدد بالمجموع التاريخي للممارسة الاجتماعية كما "يدرس في كل مستوياته كأثر معقد، لكل تناقضات زمنه، و هذا يعني أن العمل الأدبي ليس مضمونا إيديولوجيا له لباس أدبي أو بناء معينا للإيديولوجيا العامة أو نسقا إيديولوجيا يعيد بناءها"[167] فالأدب ليس فقط إعادة إنتاج الإيديولوجيا، بل يزيحها من مقام إلى مقام آخر و من شكل إلى شكل آخر عن طريق أدواته الفنية.

إن العملية الأدبية تقوم بإعادة تنظيم الإيديولوجيا و وضعها في شكلها الصحيح و تعيد إنتاجها لأنها تترجم لنا التاريخ، الواقع و الفكر العام الذي ينحت منهم المبدع إبداعه.

يرى "جولدمان" أن المؤلفات الأدبية هي انعكاس الأفكار و أنساق فلسفية ممكنة وبالتالي مجموعات اجتماعية التي تنتج نسقا فلسفيا، رؤية للعالم موحدة و منسجمة.

أما تلميذه "بيير ماشري" "Pierre Macherey" فهو يرى أن الأدب يعرض إيديولوجيات محددة ليبين تناقضاتها و ثغراتها: "النص ليس تعبيرا عن إيديولوجيا، أي إقامتها و بنائها بالكلمات بقدر ما هو عرض أو إخراج لها، يعمل على إظهار تاريخيتها و إحتماليتها، ويلغي سمتها الطبيعية"[168].

و كما يقول تيري إيجلتون في كتابه (النقد و الإيديولوجيا) أن النص "لا يفكك الإيديولوجيا لكي يعيد تشكيلها حسب شروطه النسبية المستقلة الخاصة به، و لكن يعالجها و يعيد صياغتها في الإنتاج الجمالي في الوقت نفسه الذي يعمل فيه على تفكيك نفسه بتأثير الإيديولوجيا عليه، و بهذه الطريقة يشوش النص نظام الإيديولوجيا

---

[167] المرجع نفسه.

[168] P.Macherey, *pour une théorie à la production littéraire*, Maspiro, Paris, 1966.

لكي ينتج نظاما داخليا قد يتسبب في حدوث تشوش جديد و طازج للنظام في النص وفي الإيديولوجيا و بالتالي فإن بنية النص هي نتاج هذه العملية و ليست انعكاسا للظروف الإيديولوجية المحيطة"، فالنص الأدبي يقرب العلاقة ما بين التاريخي و الواقعي و الأيديولوجيا. أمّا الأديب فتتحكم في عمليته الإبداعية تجربته الحياتية بأبعادها النفسية و الإيديولوجية و الاجتماعية و مجمل الصراعات الفكرية القائمة بمجتمعه و عصره.

و مما سبق نستنتج أن:

1. النص الأدبي هو كتابة تنظم الإيديولوجيا و يعطيها شكلا لإنتاج دلالات جديدة و متميزة مختلفة من نص لآخر.
2. النص يسمح باكتشاف و إعادة تكوين الإيديولوجيا لأنه يفضح كاتبه و يُعريه و يكشف عن ما يخفيه من انعكاسات فكرية و رؤى.
3. العمل الأدبي يعكس الواقع بجميع ظواهره، أشخاصه، علاقاته، أحاسيسه ومخفيته فالإيديولوجيا في علاقتها مع كل ما يصدر عن الفكر البشري تظل هبته بغض النظر عن كل شيء آخر، لأن هذا الفكر هو منتج الأيديولوجيا في الأول و الأخير و هي وسيلة للتطور و الاستمرار فبهذا الأدب يتأثر بالإيديولوجيا و يؤثر فيها فالعلاقة بينهما هي علاقة تبادلية (تأثير و تأثرا).

المبحث الثالث : علاقة الرواية بالإيديولوجيا

إذا ما بحثنا عن العلاقة بين الرواية و الإيديولوجيا وجدنا أن الرواية: "ارتبطت بالإيديولوجيا، لأنها من أوائل جنس الفنون الأدبية التي طبقت عليها مفاهيم الإيديولوجيا و اتخذت وسيلة لنشرها و إيضاحها، و ظلت كذلك في رحلتها الزمانية و المكانية، من الغرب إلى العالم، و من نشوء الرواية إلى اليوم"[169].

فالدراسات النقدية ترتبط نشأتها و تطورها مع تطور تاريخ المجتمعات الأوربية، هذا ما ذهب إليه جورج لوكا تش في قوله: "الرواية هي الشكل الأدبي الأكثر دلالة على المجتمع الأوروبي و لم تبدأ في الظهور إلا بعد أن صارت الشكل التعبيري للمجتمع البرجوازي"[170]، ذلك أن الرواية هي الجنس الأدبي الأوربي الذي جسّد قيم البرجوازية على شكل ملحمة نثرية، في مقابل الشكل الشعري الذي ظل سائدا لمدة من الزمن يمجد الآثار البطولية الفردية، عكس ما تصوره الرواية من تبلور واضح لحركة المجتمع، ذلك لأنها ردت الاعتبار للإنسان العادي و منحت الثقة بالنفس في خلق واقع جديد و قيم تتلاءم مع تشكيلته الاجتماعية، فالرواية إذن تبقى على حد قول "لوكا تش"، جنس أدبي ديناميكي، أي تتحقق فيه جدلية "نعم" و "لا" بخلاف الملحمة التي غيبت الإنسان العادي و قزمته، و جعلته غير قادر على مواجهة الواقع و هذا ما تجسد في ملاحم القرون الوسطى.

و بظهور الرأسمالية تحللت القيم الثقافية و المعرفية الإقطاعية و فقدت مكانتها على المستويين: الاجتماعي و الأخلاقي، و لكون الرواية جنس أدبي، فهي في المقام الأول تصوير للوعي الاجتماعي، الذي يجسد القناعات و الرؤى السائدة في المجتمع، لتؤسس

---

[169] فادية لمليح حلواني، الرواية و الأيديولوجيا، الآمال للطباعة و النشر، دمشق، ط1، 1988.

[170] نفس المرجع السابق.

علـى شـاكلته آليـات التغييـر الحاملـة لميـزات الـوعي فـي الروايـة فهـي: "مكـان تجميـع إيديولوجيات أو عناصر إيديولوجيات طبقات اجتماعية متصارعة"[171].

و الرواية تمثل الاتجاه الإيديولوجي التي تنتمي إليه: "فهناك علاقة احتجاج قائمة بين النص ككل و بين محتوى النص، النص ككل هو من صياغة المبدع أما محتوياته فهي عناصر مستمدة من الحقل الاجتماعي الإيديولوجي"[172] فكما قال "لوكا تش"، الرواية هي النوع الأدبي النموذجي للمجتمع البرجوازي، فإذن تناقضات المجتمع الرأسمالي هي التي تقدم المفتاح لفهم الرواية، من حيث أنها نوع أدبي قائم بذاته، و الرواية هي تجسد الواقع و تمثل موقف من هذا الواقع و الموقف هذا يتشكل بإعادة إنتاج هذا الصراع الواقعي والإيديولوجي في النص.

فالعلاقة إذن بين الرواية و الإيديولوجيا هي علاقة وثيقة متبادلة.

فهذا الجنس الأدبي يعكس إيديولوجيات الواقع من جهة و تندرج في الحقل الإيديولوجي لكونها مغامرة فكرية من جهة أخرى، و من هنا نستطيع القول بأن: "الرواية تقوم في هذه الحالة بمهمة مزدوجة : توظف الإيديولوجيات من ناحية و تقتحم عالم الصراع الإيديولوجي أو البحث المعرفي من ناحية أخرى"[173].

و الرواية التاريخية هي في خدمة الإيديولوجيا، فهي تقوم بنقد الحاضر من خلال دراسة الماضي. Kadaré "كاداري" يستعمل مصر لمهاجمة الديكتاتورية و "داينيكس" Daeninkcx يهاجم في رواية « Meurtres pour mémoire » هدوء و طمأنينة عمال Vichy في رواية هنري الرابع (Henri IV) يقوم (Heinrich Mann) المنفي في فرنسا باستعمال الواقع التاريخي كحجج لتبيان خطورة النازية.

---

[171] عمار بلحسن، الأدب و الإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

[172] د.حسام الخطيب، سبيل المؤثرات الأجنبية في الرواية السورية، د.ابراهيم عباس، المرجع السابق.

[173] ابراهيم عباس، الرواية المغربية، المرجع السابق.

بعيد أن يكون السارد غائب عن نصه الروائي يقوم بعرض نصه المليء بالحكم والتعليقات خصوصا في نهاية المحاور و هذا ما قد يؤدي لإخفاء العنصر التاريخي في سبيل الإيديولوجيا.

من خلال دراستنا لتعريف الإيديولوجيا، علاقة الأدب بالإديولوجيا، و علاقة الرواية بالإيديولوجيا نتوصل إلى أن العلاقة بين الرواية و الإيديولوجيا هي علاقة وثيقة متبادلة إذ أننا من خلال الرواية نستطيع الكشف عن الأفكار المعبرة للكيان الاجتماعي التي تنغرس فيه الرواية. و ذلك من خلال دراسة إيديولوجية السارد الذي هو يعبر في نفس الوقت عن إيديولوجية المجتمع الذي ينتمي إليه. و سندرس في مبحثنا القادم إيديولوجية الساردة في روايتها، و سنحاول أيضا معرفة غاياتها الإيديولوجية لكتابة التاريخ.

المبحث الرابع: تحليل الرواية إيديولوجيا

في مبحثنا هذا سنحاول تحليل الرواية إيديولوجيا و ذلك بهدف معرفة إيديولوجية الساردة، و المجتمع التي تنتمي إليه؛ و هل هي نفس الإيديولوجيا أم هما مختلفتان. و ما هي الغايات الإيديولوجية لكتابة التاريخ. و في تحليلنا لهذا المبحث، سننطلق من المفهوم التالي:

« Notre définition de travail de l'idéologie est donc la suivante *: une idéologie est le fondement des représentations sociales partagées par un groupe.* Ces idées de groupes peuvent être évaluées positivement, négativement ou ne pas être évaluées du tout, et ce en fonction du point de vue, de l'appartenance à un groupe ou de l'éthique de chacun »[174].

نلاحظ أن الساردة تطرح في روايتها العديد من الأسئلة، ففي الصفحة الأولى طرحت السؤال:

« Mais ne serait-ce pas tout simplement une vision née de ses rêves ? »[175]

وهذا يدل أن رؤية الطفل للبواخر على شاطئ البحر لا يمكن أن تكون رؤية حقيقية. من خلال طرحها لهذا التساؤل نجد أن الساردة أرادت قول أنه من المستحيل أن يتم احتلال الجزائر ذلك أنها تمثل مركز قوة في العالم بأسره ولم يكن لها أي سوابق مع البلدان الأخرى. فالطفل لم يتوقع ولو للحظة أن الجزائر ستكون مستعمرة من طرف بلدان أخرى.

---

[174]**Teun Van** Dijk, « Politique, Idéologie et Discours », *Semen* [En ligne], 21 | 2006, mis en ligne le 28 avril 2007, consulté le 22 novembre 2013. URL: http://semen.revues.org/1970.

"الإيدولوجيا هي أساس التمثيلات الاجتماعية التي تتقاسمها نفس المجموعة. هذه الأفكار قد تكون إيجابية، سلبية أو حيادية، و ذلك حسب الانتماء الشخصي لكل فرد من المجموعات الاجتماعية." ترجمة شخصية.

[175]الرواية ص09."هل هي عبارة عن رؤية بحتة من خيال الطفل؟". ترجمة شخصية.

تقول الساردة في الصفحة الحادية عشر أن الطفل قد بدأ بالجري بعد أن تأكد أن ما يراه حقيقة وليس من صنع خياله. تقول أنه كان يستطيع الصراخ وإخبار الآخرين بما قد رآه ولكنها تطرح السؤال لمن يخبر بما قد رآه؟ فلم يكن هناك لا رجال ولا أسلحة وذلك لتحذيرهم.

« L'enfant dévale le promontoire. Il se met à courir. Il pourrait, à grands cris, bousculer la quiétude de ce matin. Il pourrait donner l'alerte. Mais à qui ? Il n'ya ni hommes ni armes sur la tour de garde qui domine la côte. »[176]

من خلال هذا التساؤل، نجد أن الساردة تحاول أن توصل لنا أن الشعب الجزائري لم يكن على استعداد للقيام بثروة، أو لأي مقاومة. بل و لم يتوقع أي استعمار من الخارج؛ ذلك أنه لم يعرف أي صراع أو اختلاف مع البلدان الأخرى.

ونجد في الرواية فقرة قد كُتِبَت بأحرف مغايرة عن الفقرات السابقة. وفي هذه الفقرة الساردة تقوم بطرح أسئلة متتالية ومفتوحة دون أن تجيب عليها. في الحقيقة هي أسئلة نستطيع الإجابة عليها بسهولة ولكن الغاية الحقيقية منها هي إظهار إيديولوجية الساردة التي هي أيضا إيديولوجية المجتمع الجزائري وليست إيديولوجيتها الخاصة فقط .فهي تعلق قائلة:

« *Mais surtout, qui aurait pu accorder foi aux paroles d'un enfant ? comment, en ce jour tranquille, aurait-on pu imaginer ce qui se préparait en ce même instant, l'imminence de ce qui allait déferler sur la plage et changer le cours de tant de vies, et durant tant d'années ? Comment lui,*

[176] الرواية ص 11."الطفل نزل بسرعة من الغار، بدأ يجري، كان يستطيع أن يصرخ بأعلى صوته و بالتالي كسر السكينة التي تعم في الصباح. كان بإمكانه أن يطلق إنذار؛ و لكن لمن؟ لم يكن يوجد لا رجال و لا أسلحة في برج مراقبة شاطئ البحر.". ترجمة شخصية.

l'enfant, aurait-il pu décrire aux autres, à tous les autres, cette vision, une vision tellement inouïe que lui-même doutait de ce qu'il venait de voir ? »[177]

وتواصل الساردة في الصفحة التالية طرحها للأسئلة قائلة أن الطفل قد وصل إلى ضريح سيدي فرج، فتساءلت: "هل تنبأ الرجل الصالح بأن اسمه سيكون مسجلا على لوحات التاريخ؟" فهنا الساردة تستبق حدث أن الجزائر ستكون تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الذي سيدخل من خلال سيدي فرج ، وان اسم سيدي فرج سيؤرخ للأبد.

في الفصل الخامس، تحدثت الساردة عن ما رآه الطفل، كيف قام الاستعمار بإدخال الجزائريين للمغارات التي بنيت في الأساس لحمايتهم وقاموا بحرقهم.

« Tous. Pris au piège dans le ventre de la terre, de leur terre, dans la roche trouée de galeries souterraines aménagées depuis des décennies pour les protéger des ennemis, et dans lesquels ils croyaient trouver refuge. Enfermés. Emmurés. Enflammés. Enfumés. »[178]

بعد هذا الوصف، قامت بطرح العديد من الأسئلة المفتوحة. فالطفل كان مختبئاً وقد رأى كل شيء، فالساردة تتساءل:

« Pourquoi, malgré sa peur, l'enfant a-t-il décidé de ne pas bouger, d'attendre la suite ? Quel obscure pressentiment a retenu là l'enfant […] au creux d'une montagne? »[179]

---

[177] الرواية ص11. "ولكن من كان سيصدق أقوال الطفل؟ كيف كان في مثل هذا اليوم الهادئ أن نتخيل ما كان سيحدث في تلك اللحظة سيغير مجرى الحياة لأعوام عديدة؟ كيف أنّ للطفل أن يستطيع أن يصف للآخرين، كلهم، ذلك المشهد الغريب الذي هو في حد ذاته يشك أنه قد رآه لتوّه؟" ترجمة شخصية.

[178] الرواية ص29. "وقعوا كلهم في الفخ في باطن الأرض، في المغارات المحفورة منذ عشرات السنين التي كانوا سيختبئون فيها للحماية من العدو؛ أين كانوا يعتقدون وجود مفر لهم. فقد أُغلق عليهم و أُشعلت النيران و احترقوا حتى أصبحوا دخاناً و رماداً."

[179] الرواية ص30."لماذا بالرغم من الخوف، الطفل لم يتحرك من مكانه وبقي لمشاهدة العملية الوحشية في حق عائلته وقبيلته؟ ما هو هذا الإحساس الغامض الذي أجبر الطفل على البقاء بين ثنايا الجبال لمشاهدة موت قبيلته حتى النهاية؟"

تشرح لنا الساردة مرارة الأحداث المعلقة في ذاكرة الطفل الصغير، المتعلقة بموت عائلته وأفراد قبيلته. وتواصل معلقةً أن الطفل سيحتفظ في ذاكرته بكابوس مظلم لم ولن يعرف بعده كابوس أكثر قسوة، وذلك راجع لمدى بشاعة ما رآه، ". من خلال هذه الأسئلة تظهر لنا الساردة أن ذاكرة الطفل لم تعرف من قبل ولن تعرف فيما بعد مشهدا أكثر قسوة أبدا، مشهدا قد حدث لطفل صغير مع أشخاص هم عائلته وقبيلته. فتظهر الساردة بطريقة أخرى أنّ الأحداث المعيشة من طرف الشعب الجزائري كانت جد قاسية، مما جعلته مصدوما بشكل دائم. فإيديولوجية الساردة هي واضحة بخصوص بربرية و همجية و شراسة السياسة الاستعمارية في الجزائر.

« Quelle autre puissance imaginative aurait pu concevoir et mettre en scène un tel spectacle ? »[180]

قامت الساردة في روايتها باستعمال لفظة جديدة في اللغة الفرنسية و هي "Enfumades" : التي استعارتها من كلمة "Enfumages" الخاصة بالنحل، فمن خلال هذه اللفظة هي تحاول التعبير عن عملية الإبادة من خلال حرق جماعة كبيرة من الأشخاص.

أي أن الساردة تبين أنه ما كان مُطبق على الحيوانات؛ أصبح مُطبقا على الأشخاص. و هذه طبعا إيديولوجية و وجهة نظر كل الشعب الجزائري.

في الفصل السابع، تطرقت الساردة إلى ما يتعلمه التلاميذ في المدرسة، فيجب على "مدام لافرانس " تعليمهم مبادئ اللغة الفرنسية وإلغاء اللغة الأم (العربية) أو على الأقل السماح ببعض الكلمات التي ليس لها مقابل في اللغة الفرنسية مثل: "ششية، سروال، برنوس، كسكس، قندورة". وبالتالي إنكار الهوية الجزائرية واللغة العربية.

« Les consignes sont claires. Proscrire la langue maternelle. A la rigueur, accepter les mots qui désignent des objets sans équivalent dans les pratiques

[180] الرواية ص30. "ما هي هذه القوة الخيالية التي تستطيع خلق مشهد آخر بنفس قسوة ما رآه؟"

culinaires et vestimentaires de la mère patrie : « chéchia, saroual, burnous, couscous, gandoura. » »[181]

إذن في المدارس، كان الأطفال الجزائريين يتعلمون إنكار هويتهم (الجزائر بلدهم، العربية لغتهم) وكانوا يتعلمون ثقافة ولغة ليست بثقافتهم ولا بلغتهم. فتواصل الساردة قائلة بأن على التلاميذ أن يتعلموا محبة فرنسا، مع لغتها. ويجب عليهم احترام مكانة هذا البلد، ففي المدرسة مهمة "مدام لافرانس" نزع الجهل والبربرية والظلمات التي تعيش في نفوس التلاميذ منذ سنوات. لكن "مدام لافرانس" لم تفهم أن مشكلة الطفل هي الاعتراف بحبه لفرنسا، بل تصورت أنه يجد صعوبة في اللغة والنطق.

وتعلق في نهاية هذا الفصل قائلة أن شعار "مدام لافرانس" هو حرية، مساواة، أخوة. فالساردة أضافت هذا التعليق لتبين ساخرة مدى تناقض وخبث نوايا "مدام لافرانس" أي الدولة الفرنسية، فبالرغم من أن شعارها يحتوي فقط ما هو نبيل إل أن أفعالها تدل تماما على عكس ما تدعيه.

« Au frontispice des mairies est gravée sa devise, en lettres capitales : LIBERTE. EGALITE. FRATERNITE. »[182]

في الفصل العاشر، تبين لنا الساردة مرة أخرى أنها تتحكم جيدا بأحداث الرواية، فهي تشاهد الأمور على حقيقتها وهي مطلعة على خفايا الشخصيات. فبعد جميع المآسي التي عاشها الطفل (أي الشعب الجزائري) من جرّاء قسوة حياته تقول أنه يطرح على نفسه العديد من الأسئلة التي لم يجد لها جواب؛ من هو المسؤول عن جميع هذه المآسي؟ ماذا فعلوا حتى ظلوا يعايشوا المشاكل هكذا؟ تقول الساردة أن الطفل يطرح على نفسه هذه الأسئلة، لكنه لم يتجرأ يوما طرحها على الآخرين، لأنه لا يريد سماع كلمة

[181] الرواية ص42. "التعليمات واضحة؛ إلغاء اللغة الأم و عند اللزوم قبول بعض الكلمات التي تدل على أشياء ليس لها مقابل في عادات الطبخ و اللبس للبلد المستعمِر: ششية، سروال، برنوس، كسكس، قندورة." ترجمة شخصية.

[182] لرواية ص52. "في واجهة البلدية، كُتب شعارها بأحرف كبيرة: حرية، مساواة، أخوة".

"مكتوب" التي تمثل بالنسبة له الاستسلام والرضا بالمأساة، لأنها حتما هي الإجابة الوحيدة والأكيدة التي ستقدم له.

« Jour et nuit, des questions le taraudent. Qui est responsable de ces malheurs ? Qu'ont-ils bien pu faire pour qu'on s'acharne ainsi sur eux ? Mais il ne pose pas ces questions. Il ne pose aucune question. A personne. Parce qu'il ne veut plus entendre ce mot, pour lui synonyme de résignation, de consentement au malheur : *Mektoub ! »*[183]

فتبين لنا الساردة هنا أن الجميع كانوا متفقين على أن السياسة الاستعمارية كانت جد قاسية و لا أحد يستطيع تحملها، فالساردة هنا تقتسم نفس إيديولوجية الشعب الجزائري ككل.

في الفصل الثاني عشر ذكرت الساردة أن "مدام لافرانس" كانت تبرر دوما وجودها في الجزائر قائلة أنها قد جاءت بهدف تثقيفهم وجعلهم أكثر حضارة، وأشارت إلى أن "مدام لافرانس" كانت تحب كثيرا كلمة " حضارة" ، فبدأت بالتعليق على هذه النوايا النبيلة وذلك من خلال طرح جملة من الأسئلة. فتقول؛ إذن من أجل تثقيف الجزائريين وجعلهم أكثر حضارة قمنا بنزع ومصادرة أراضيهم وقدمناها للفرنسيين؟ حتى يكون للجزائريين مثل حيٌّ يقتدون به فيما يخص الحضارة. الطفل لا يعرف تماما معنى كلمة حضارة، هل هي التعلم أن يكون مثل الفرنسيين في كل شيء؟ أن نقتدي بهم؟ إذن يجب بناء منازل مثل منازلهم وإيتاء بأثاث مثل أثاثهم؟ في القرى؛ هل سيكون هناك الطرقات وأرصفة وكهرباء؟ ولكن كيف؟ ماذا يجب أن يفعلوا حتى تأتي الحضارة إليهم؟

« C'est donc pour les civiliser qu'on leur a enlevé leurs terres, afin d'y installer des français venus de France ? Sans doute pour qu'ils aient sous les yeux un exemple vivant de la civilisation. Mais l'enfant ne sait pas ce que

[183]الرواية ص57. "ليلا نهارا، كانت هناك أسئلة تشغله. من هو المسؤول عن كل هذه الآلام؟ ما الذي فعلوه حتى يُعاقبوا بمثل هذا الشكل؟ لكنه لا يطرح هذه الأسئلة، لا يطرح أي سؤال لأحد، لأنّه لا يريد سماع كلمة "مكتوب" التي تمثل له الاستسلام و الرضا بالمأساة." ترجمة شخصية.

veut dire apprendre à être, à vivre, comme les français ? alors, cela voudrait dire qu'il faut construire des maisons comme celles des français, avec des murs de pierre, des meubles et des arrivées d'eau, dans les douars, on verrait des routes, des trottoirs et de l'électricité ? Mais comment ? Comment faire pour que la civilisation arrive jusqu'à eux ? »[184]

فالساردة تظهر لنا هنا من خلال الأسئلة المطروحة أن حتى الحضارة التي تدعي فرنسا تقديمها للشعب الجزائري هي غير موجودة، فهو بالعكس يعيش في القرى بلا ماء أو كهرباء أو غاز أين تنعدم شروط الحياة السهلة والطبيعية. في حين أن الفرنسيين ينعمون في المدن بجميع الشروط لحياة جميلة و راغدة. فتبين لنا الساردة أكاذيب و خدع الاستعمار الذي يدّعي أنه جاء من تحقيق هدف نبيل.

تطرقت الساردة في الفصل الرابع عشر إلى شخصية "سي لالوا"، الذي كان في خدمة فرنسا ومصدر آلام وتعاسة الشعب الجزائري، ثم طرحت أسئلة عديدة قائلة: هل "سي لالوا" هو شخص جزائري؟ هل هو من الذين خانوا الجزائر وأعطى ولاءه لـ "مدام لافرانس"؟ لأنه ليس من العادة أن نجد اسم فرنسي مسبوق بـ "سي" ولكن بالعكس أسماء العرب تُسبق عادة بـ "سي" الذي هو تصغير لـ "سيدي". أما الفرنسيين فهم يحبون "ميسيو" (Missieu) أو "ميدام" (Médéme) مما يضحكهم عادة لسبب يجهله العرب.

« Serait-ce l'un des siens ? L'un de ceux qui ont fait allégeance à *França*, en trahissant parfois leur propre tribu ? Parce qu'il n'est pas habituel ni même concevable que les noms des Roumis soient précédés de ce « Si », qui n'est autre que le diminutif de Sidi, titre honorifique uniquement réservé aux personnes considérables et aux marabouts ! Les Roumis veulent qu'on leur

[184]الرواية ص67. "إذن لجعلهم أكثر حضارة قمنا بمصادرة أراضيهم و إعطائها للفرنسيين؟ بلا شك حتى يكون هناك مثل حي عن الحضارة يقتدون به و يشاهدوه يوميا. و لكن الطفل لا يعرف كيف يصبح و يعيش مثل الفرنسيين؟ هل هذا يعني أن نبني منازل تشبه منازلهم، مع أثاث؟ إذن هل سنرى في الدوار الطرقات المشيدة؛ الأرصفة و الكهرباء؟ و لكن كيف؟ كيف العمل حتى تأتي الحضارة إليهم؟"

donne du *Missieu* ou du *Médéme*, ce qui les fait rire aux éclats parfois, sans que personne ne comprenne pourquoi ! »[185]

فهنا تشير الساردة إلى أنه في وقت الاحتلال الفرنسي للجزائر قد وُجِد بعض الجزائريين الذين خانوا بلدهم وأعلنوا ولاءهم لفرنسا. فكانوا ينقلون لها الأخبار، يترصدون حركات الثوار وكل ما يحدث في المجتمع الجزائري. وذكرت أيضا استعمال "سي" في أسماء الجزائريين، ف"سي" هي تصغير لسيدي الذي بدوره هو لقب شرفي يعطى لكل من يستحقه. فالساردة تظهر كيف أن حتى بعض الجزائريين قد قاموا بالوقوف مع الصفوف الفرنسية، و بذلك خيانة وطنهم، أي هي تنقل لنا الغدر الذي عرفه الشعب الجزائري من الجزائريين نفسهم.

تقول الساردة أن "سي لالوا" يمنع سكان القرية من استقبال الضيوف وإكرامهم، فبذلك هو يغير عادات تمارس من قرون، ففي كل مرة على رجال القرية أن يستشيروا المسؤول المعين من طرف الفرنسيين من أجل الحصول على رخصة استقبال ضيف، وهو أيضا من يعطيهم رخصة السفر من مكان لآخر، ولو كانوا بضع أمتار لزيارة الأقارب مثلا أو عيادة مريض.

« Les hommes du village disent que c'est lui, Si Laloi, qui leur interdit maintenant de donner l'hospitalité à un étranger de passage sans en référer au chef du douar, bafouant ainsi des traditions millénaires qui font du devoir d'hospitalité un devoir sacré. Ils disent que c'est lui, toujours lui, qui les oblige à solliciter auprès des représentants de l'administration coloniale un permis de voyage pour quitter le douar. Même s'ils ne doivent parcourir qu'une courte distance afin d'aller rendre visite à l'un de leurs proches. »[186]

---

[185] الرواية ص79/78. "هل هو من أحد أتباعها؟ من الذين أعطوا ولاءهم لفرنسا و الذين قاموا بخيانة قبيلتهم؟ لأنه عادة لا يسبق أسامي الفرنسيين إسم "سي" الذي هو تصغير لـ"سيدي"؛ اللقب الشرفي الذي يُعطى للأشخاص المرموقين. فالفرنسيون يحبون "ميسيو" أو "ميدام" مما يضحكهم عادة لسبب يجهله الجميع" ترجمة شخصية.

[186] الرواية ص79. "رجال القرية يقولون أنه هو، سي لا لوا، الذي يمنع حسن ضيافة عابر السبيل بدون الحصول على رخصة من مسؤول الدوّار. فبهذا تترك العادات الممارسة من سنين و التي تنص على حسن الضيافة و أنها

فهنا نلاحظ أن فرنسا قامت بتعيين قائد القرية لمراقبة كل تحركات الجزائريين الذين أصبحوا مجبرين على استشارته قبل القيام بأي شيء خوفا من أن يُشاركوا في الثورة أو أن يساعدوا المجاهدين. وبالتالي تذكر لنا الساردة أنّ حتى التحركات العادية للجزائريين كانت مراقبة، فهم كانوا أحرار و لكن سجناء في نفس الوقت.

في الفصل العشرين، تحدثت الساردة عن "بيير" (Pierre) صديق و زميل الطفل، فلم يكن يتكلم العربية و لا يفهمها لأنها لم تكن تُدرّس في المدارس و لما سأل "بيير" والده عن السبب، استغرب الأب في الأول و كأنه لم يفكر أبدا في ذلك الأمر ثم أجابه أن الجميع هنا فرنسي لأنهم يعيشون في فرنسا و لغة فرنسا هي الفرنسية، إذن فهم يدرسون الفرنسية فقط في المدارس. و لكن "بيير" لم يفهم جيدا شرحه لأن فرنسا هي بلد آخر بعيد يقع في الجهة الأخرى من البحر و هنا هي الجزائر. و أيضا بالنسبة له و للآخرين العرب هم ببساطة عرب و ليسوا فرنسيين، فمثلا عمه "فرناند" (Fernand) كان يشتمهم بجميع الألقاب الدنيئة و لكنه لم يقل يوما أنهم فرنسيين، فبالنسبة للكل العرب هم عرب.

« A l'école, on n'enseigne pas l'arabe. Il ne sait pas pourquoi. Lorsqu'il a posé la question à son père, celui-ci a semblé étonné. Comme s'il n'y avait jamais pensé. Puis il lui a répondu qu'ici tout le monde était français, parce qu'on était en France, et qu'en France, la seule langue est le français. Il n'a pas très bien compris son explication. D'abord parce que la France, c'est un autre pays, de l'autre côté de la mer. Ici, c'est l'Algérie. Et aussi parce que pour lui et pour tout le monde, les arabes sont simplement des arabes. Son oncle Fernand, lui, les appelle les crouilles, les bougnoules ou bien les ratons, ou bien encore les bicots. Sans doute pour les distinguer des français ou des européens. Mais personne ne penserait à dire d'eux qu'ils

---

واجب مقدس. و يقولون أيضا أنه هو الذي يحث على طلب رخصة الخروج من الدوّار من ممثلين الإدارة الفرنسية. حتى و لو كانوا ذاهبين لبضع أمتار لزيارة الأقارب" ترجمة شخصية.

sont français. Même si depuis quelque temps, ils sont français-à-part-entière »[187].

فتظهر لنا الساردة أنه رغم مجهودات فرنسا و إدعائها أن الجزائر قد أصبحت جزءًا من فرنسا ، إلّا أن العرب ظلّوا عرباً بالنسبة للفرنسيين و لن يصبحوا فرنسيين أبدا، مهما حاولت و فعلت فرنسا لجعلهم فرنسيين. فهي تنقل صورة العرب السلبية بالنسبة للفرنسيين، و تظهر أيضا أنه بالرغم من التعايش الذي تدّعيه فرنسا إلّا أن الحقيقة كانت جد مختلفة؛ فالفرنسيون أرادوا محو العرب و القضاء على كل ما يدل عليهم أو يخصهم.

تحدثت الساردة بعدها عن خروج الفرنسيين في مظاهرات مطالبين المساواة و الأخوة مع الجزائريين، ثم قامت بالتعليق قائلة: و كأن أيام قليلة أو ساعات قليلة كانت كافية لتهدم الأسوار المبنية منذ زمن طويل و لمحو الاختلافات، الحقد، الكره، الخوف، الرفض، كل ما تراكم منذ بداية الحرب، و كأن كل شيء سيزول بمجرد المطالبة في المظاهرات بالأخوة و المساواة.

« Pierre le croyait vraiment. Il croyait que quelques jours, quelques heures d’une promiscuité inhabituelle, la soudaine révélation d’une présence jusqu’alors subie bien plus qu’acceptée, une fraternisation spontanée, pouvaient suffire pour que les murs érigés depuis longtemps, depuis si longtemps, soient pulvérisés pour laisser entrer le soleil. Pour que les différences, la méfiance, les rancœurs, la haine, la peur, les rejets, oui, tout ce qui était accumulé depuis le début de leur histoire commune, s’estompe

[187]الرواية ص113. "في المدرسة، لا تُدرّس اللغة العربية. "بيير" لا يعلم لماذا. عندما طرح السؤال على والده استغرب و كأنّه لم يفكر في الإجابة من قبل أبداً. ثم أجابه أن الجميع هنا فرنسيين لأننا في فرنسا، و في فرنسا نحن نتحدث باللغة الفرنسية. "بيير" لم يفهم شرحه جيداً؛ أولا لأن فرنسا هي بلد آخر بعيد يقع في الجهة الأخرى من البحر، و هنا هي الجزائر. و أيضا و ببساطة بالنسبة له و للآخرين؛ العرب هم عرب. فعمّه "فرناند" يشتمهم بجميع الألقاب الدنيئة و ذلك لتمييزهم عن الفرنسيين و الأوروبيين؛ و لكن لا أحد يتجرأ على القول أنهم فرنسيون حتى و إن كان من زمن قصير قد أصبحوا فرنسيين مميزين." ترجمة شخصية.

sous l'effet prodigieux de quelques slogans répétés par des milliers de personnes »[188].

تظهر لنا الساردة هنا إيديولوجيتها، حيث تقول أنه من غير المعقول أن ينسى الشعب الجزائري المجازر المرتكبة في حقه و الظلم الذي عاشه لسنين طويلة بمجرد أن يقوم الفرنسيون بمظاهرات مطالبين بالمساواة و الأخوة.

في الفصل الواحد و العشرين تقوم الساردة بالتعليق على تصرفات "مدام لافرانس" التي أجبرت الجزائريين على العيش في المعسكرات و ادعت أنها قامت بإيوائهم نظرا لحالتهم و فقرهم. فتقول الساردة أنّه كان يجب أن يُحاصر الجميع في مناطق محروسة جيدا من أجل إخضاعهم و أيضا من أجل إبعاد الفلاحين عن أراضيهم حتى يستطيعوا إعطاء هذه الأراضي للفرنسيين الذين سيأتون لاحقا و قريبا للعيش في الجزائر.

« Il fallait cantonner les tribus rebelles sur des territoires sécurisés. Les « resserrer » dans des villages de tentes, étroitement surveillés. Pour pouvoir les soumettre. Et puis, il fallait bien caser quelque part les paysans expulsés pour pouvoir redistribuer en toute tranquillité leurs terres aux nouveaux arrivants. »[189]

قامت الساردة بالإشارة إلى أنّه قبل نوفمبر 1954 أقامت فرنسا معسكرات ذات ظروف دنيئة أين جُمّعت القبائل المتمردة التي أقيمت بهدف إبعاد الجزائريين عن أراضيهم من أجل مصادرتها للفرنسيين و أيضا من أجل مراقبتهم جيدا. و تواصل في نفس الفصل الساردة تعليقاتها قائلة بأنه في هذه المعسكرات سيموت الأطفال من شدة الجوع كل يوم. كم من طفل سيموت؟ ما مدى أهمية هذا الأمر؟ حرارة الصيف وبرودة الشتاء يقتلان

---

[188]الرواية ص116. " "بيير" قد صدّق جيداً أنّ بضع أيام و ساعات من الاختلاط غير العادي، و التصريح المفاجئ بالوجود الذي هو غير مقبول، مع إعلان الأخوة هي كفيلة لهدم الجدران المشيدة منذ زمن جد طويل، كافية لمحو كل الاختلافات، الكره، الحقد، الخوف، الرفض و كل ما تراكم منذ بداية قصتهم المشتركة. و كأنّ كل هذا سيكون بفضل الشعارات المرددة من طرف الآلاف." ترجمة شخصية.

[189]الرواية ص 124."كان يجب محاصرة القبائل المتمردة في مناطق محروسة و آمنة، و ذلك لإخضاعهم. و كان يجب إبعاد بعض الفلاحين و ذلك لتوزيع أراضيهم على القادمين الجدد من فرنسا." ترجمة شخصية.

الجزائريين أكثر من المجاز، فالعائلات مرمية في بيوت جد صغيرة و ضيقة أين تتحمل في صمت جميع أنواع الكره، الإهانة و الذل. ففي هذه الأماكن سيعرف الجزائريون المعنى الحقيقي للحرية أكثر من لو أنهم تعلموه في أي مدرسة كانت.

« Dans ces c… de regroupement, des enfants meurent de faim. Chaque jour. Combien ? Quelle importance ? Là, la chaleur des étés et les rigueurs de l'hiver tuent plus sûrement qu'une opération de représailles. Dans ces lieux, les familles, entassées dans des pièces minuscules et soumises à une stricte discipline militaire, supportent en silence mépris et avanies de toute sorte. Mieux que dans toute autre école, c'est là qu'ils apprennent à donner sens au mot liberté. »[190]

الساردة تبين لنا أن حياة الشعب الجزائري لم تكن لها أي قيمة، فموتهم لا يعني شيئا لأحد.

في الفصل الثاني عشر، نقلت لنا الساردة إيديولوجية استعمارية أخرى حين تحدثت عن ما كان يتعلمه الطفل في المدرسة الفرنسية. كانت المعلمة تحكي لهم قصص تاريخ فرنسا، فكان الطفل يحب بالأخص قصة البطل و القائد المسمى Vercingétorix و قصة المرأة التي كانت تسمع أصواتا التي تطلب منها إنقاذ فرنسا : Jeanne d'Arc جان دارك، فهذين المحاربين قاما بطرد الغرباء من بلدهم بشجاعة. و في المقابل، كان الطفل يتذكر بعض القصص التي كانت ترويها له أمه و جدته عن كاهينة و صلاح الدين الأيوبي.

« L'enfant aime particulièrement l'entendre évoquer les glorieuses batailles d'un chef nommé Vercingétorix. Ou bien la vie extraordinaire et la mort tragique d'une femme qui entendait des voix qui lui disaient de sauver la

[190] الرواية ص126. "في هذه المعسكرات، الأطفال يموتون من الجوع كل يوم. كم؟ ما الأهمية؟ هنا حرارة الصيف و برودة الشتاء يقتلان أكثر من العمليات المنظمة ضدهم. في هذه الأماكن، العائلات مرمية في غرف جد صغيرة و خاضعة لنظام عسكري بحت، متحملين في صمت الكره و الإهانة بكل شتّى الأشكال. في هذه المعسكرات سيتعلمون إعطاء معنى للحرية أفضل من في جميع المدارس." ترجمة شخصية.

France : elle s'appelle Jeanne d'Arc. Tous deux ont combattu et chassé avec beaucoup de courage les étrangers de leur patrie. Il pense alors aux histoires qui lui racontent certains soirs sa mère et sa grand- mère, celle de la Kahina, reine à la chevelure rousse, ou bien celle de l'invincible cavalier, Salah Eddine Ayoubi. »[191]

فهنا تظهر الساردة لنا أن ما يتعلمه الطفل في المدرسة هو بعيد عن واقع الطفل، حتى فيما يخص التاريخ، فالمعلمة تتحدث عن أمجاد فرنسا في طرد العدو الذي جاء من أجل احتلالها و في المقابل يُسقط الطفل ما يسمعه على تاريخ بلده الجزائر و إرادة الشعب الجزائري في طرد العدو الفرنسي من أراضيه. و هي أيضا إيديولوجية استعمارية.

من خلال دراستنا لهذا المبحث نتوصل إلى أن الساردة قد أدانت الاستعمار و وحشيته و بربريته؛ من خلال ذكر مجازره، قوانينه المطبقة على الجزائريين و التي تفيد بحصر حريتهم، و أوضحت أيضا أنّ الشعب الجزائري كانت له نفس الرؤية. فالساردة تتقاسم إذن مع الشعب الجزائري نفس الإيديولوجية. فكما يقول "فان جيك":

« Les idéologies, comme les langues, sont essentiellement sociales. Il n'y a pas d'idéologies « personnelles » ou « individuelles », mais seulement des emplois personnels ou individuels des idéologies. […]Sur le plan cognitif, les idéologies sont un type particulier de système de croyances sociales, stockées dans la mémoire à long terme. »[192].

---

[191] الرواية ص 67."الطفل يحب خاصة عندما تقوم المعلمة بالتحدث عن الحروب المجيدة التي قام بها القائد المسمى Vercingétorix، أو المشوار الرائع التي عاشته المرأة التي كانت تسمع أصواتا تطلب منها إنقاذ فرنسا، فهي تسمّى جان دارك و كانت لها نهاية مأساوية. فهذين البطلين قد حاربا و أخرجا بشجاعة كبيرة الغرباء من بلدهم. و هذا ا يذكّره بالقصص التي كانت تحكيها له أمّه و جدته عن كاهينة، الملكة ذات الشعر الأشقر، و الفارس الذي لا يقهر؛ صلاح الدين الأيوبي." ترجمة شخصية.

[192] **Teun Van** Dijk, « Politique, Idéologie et Discours », *Semen* [En ligne], 21 | 2006, mis en ligne le 28 avril 2007, consulté le 22 novembre 2013. URL: http://semen.revues.org/1970.

"الإيديولوجيا هي مثل اللغات؛ هي دائما اجتماعية. فلا توجد إيديولوجية "شخصية" أو "فردية"، و لكن يوجد الاستعمال الشخصي و الفردي للإيديولوجيا. [...] و على المستوى الفكري؛ الإيديولوجيا هي نظام خاص للاعتقادات الاجتماعية، مخزنة في الذاكرة لوقت طويل." ترجمة شخصية.

و من الغايات الإيديولوجية من كتابة التاريخ نذكر أن الساردة أرادت اللجوء إلى الماضي من أجل قيمة تعليمية محددة تكشف لنا التاريخ بطريقة قصصية شائقة تخلق لدينا وعيا سياسيا و اجتماعيا بماضينا. أيضا؛ بعث مجد الماضي و إحياؤه مجددا في الأذهان، وهذا منطلق يبدأ من الماضي ليرفد الحاضر.

الخاتمة

دخلت فرنسا المغرب العربي بالقوة فلا عجب إذا ما وجدنا سياستها تكملة للأسلوب الذي دخلت به و يحلل الفيلسوف الفرنسي "جان پول سارتر" سياسة فرسنا في المغرب العربي فيقول، "تم الاحتلال بالعنف. الاستغلال و الضغط يتطلبان التمسك بالعنف، أي الحضور العسكري، و هكذا فلا عجب إذا عمّ الرعب فوق التراب المغربي، و لكن المعمر يتمتع هناك، في الوطن الأم بالحقوق الديمقراطية التي يرفضها الجهاز الاستعماري للمستعمرين"[193] فالسياسة الفرنسية في الجزائر اتسمت عموما بالعنف والاستغلال و حرمان الجزائريين مما يتمتع به الفرنسيون بقوة السلاح.

و قد تضرر الجزائري من الاستعمار، و في تحليل للمستعمر يصفه "ألبير ميمي" قائلا: "لقد انتزع من ماضيه و أوقف في مستقبله، تقاليده تحتضر، و ضاع أمله في تكوين ثقافة جديدة، إنه لا يمتلك لغة و لا علما، لا حقوق و لا واجبات: إنه لا يمتلك شيئا و لم يعد شيئا يذكر و لا يأمل شيئا"[194].

أصبح الجزائري لا شيء بعد ما حل به الاستعمار الذي جاء لتمدينه و تحضيره و لكن لم ينطبق ذلك على الأطفال الصغار في المدرسة الفرنسية: "النسبة العظمى من المستعمرين في الشارع، و الذي يحالفه الحظ و يدخل مدرسة لن ينجو تماما: فالذاكرة التي تكون له ليست ذاكرة شعبه و التاريخ الذي يتعلمه ليس تاريخه، إنه يعرف من هو كولبير أو كروموبل و لكنه لا يعرف من هو خزندار، يعرف من هي جان دارك و لا يعرف من هي لالا فاطمة نسومر، الكتب تحدثه عن عالم لا يشبه البتة عالمه"[195].

فإنها عملية تشويه لعقلية الطفل الجزائري الذي حظي بدخول المدرسة، أما الذي لم يحظ بذلك فقد كان علم الشارع بالنسبة إليه غزيرا.

---

[193] Albert Memmi, *Portrait du colonisé*, Payot, Paris éd.1973, مقدمة كتاب.

[194] A. Memmi, *Portrait du colonisé*, Payot, Paris, 1973.

[195] نفسه.

لذا وجد الجزائري نفسه أمام محتل غير إنساني و يوضح "سارتر " ذلك فيذكر أن المستعمِر يرى المستعمَر أدنى من الإنسان فيبتعد عنه حتى لا يتشابه معه و بذلك تصير صفة الإنسانية عدوة له (أي للمستعمِر) و بما أن المستعمَر إنسان و لا يمكن أن يكون أدنى من إنسان مهما فعل المستعمِر ، عليه إذن أن يبتعد، أي يتمعدن و يتصلب و يتحجر، و بمعنى آخر (يفقد إنسانيته) و بذلك أغلقت الأبواب أمام الجزائري و لم يبق أمامه إلا اليأس و القمع مسلط عليه، و كأنه دابة، ليس له أي حق و ظروفه تتدهور يوما بعد يوم عندما يصير الشعب لا يملك إلا اختيار نوع الموت الذي يريده، فهو لم يحصل من مستعمره إلا على اليأس، فلن يبق لديه شيء يخشى ضياعه و بهذا يتحول اليأس إلى شجاعة مما تؤدي إلى الرفض الدائم للاستعمار.

و كان اللجوء إلى التاريخ لدى "مايسة باي" في روايتها عامة ضرب من تسويق التاريخ روائيا والرواية تاريخيا من خلال بلورة المعلومة التاريخية وإعادة بنائها ضمن قصة خيالية مفتعلة لا تمس تلك المرحلة إلا خلال الزي الموحد. وهناك هدف تعليمي غير خاف في الرواية، فالمؤلفة حريصة على وضعنا في السياق التاريخي دائما وبمنتهى الدقة غالبا. لأنها تتعامل مع القارئ تعامل المعلم. فالانطلاق من الاجتماعي للسيطرة على التاريخي، يكشف عن هدف إكمال ما لم يقله التاريخ. من هنا كان لزاما على المؤلفة أن تكتب ما تتوقع أن التاريخ لم يكتبه. لاستجلاء العظة والعبرة لما حدث في تلك الفترة، ووضع ذلك حاضرا أمام القارئ، وما العودة إلى التاريخ في محصله النهاية إلا لنقله إلى الحاضر في صورة من صوره.

فالرواية التي قمنا بدراستها، نجد فيها "مدام لافرانس"، تشخيصا للبلد المُستَعمِر، فهذه الشخصية هي من النقاط التي تساهم في صنع الجانب الخيالي للرواية، بجانب شخصية "الطفل" الذي ليس له اسم و هو طفل على طول الرواية، أي طوال فترة الاستعمار. فهو يشاهد، يحلل التاريخ و يعاني من الظلم الناتج عن الاستعمار الفرنسي للجزائر لمدة

132 سنة. فنظرة الطفل تساهم في تتبع سياسة "مدام لافرانس" في الجزائر، فمن خلال هذه النظرة المليئة بالبراءة، "مايسة باي" تنبّه القراء لجميع القساوة و الإبتزازات التي عاشها الشعب الجزائري، فتوصلنا إلى أفكارها، إيديولوجيتها حول الواقع الذي عاشه سكان وطنها لمدة 132 سنة. و بالنسبة للكاتبة، نظرة الطفل هي جد مهمة لكونها وسيلة نقد و سخرية في نفس الوقت، فللطفل نظرة بريئة جديدة، واقعية، بدون أفكار مسبقة. فشخصية الطفل هي شاهدة على ما يحدث في الجهتين سواءا في طرف الجزائريين أم في طرف الفرنسيين؛ فيحاول فهم لماذا كل شيء مختلط و غير منظم و هو يتحدث دائما ببساطة و بدقة. معبرا خصوصا عن بساطة الشعب الجزائري الذي يجد صعوبة في فهم خصوصيات ما يحدث حوله.

و يمكن لنا أن نقول أن هذه الرواية تحاول تركيب صورة لمرحلة الماضي(عنصر تاريخي) و ذلك من خلال رسم واقع تعيشه الشخصيات الفردية الخيالية(عنصر روائي).

حيث ذكرت الساردة في روايتها العديد من الشخصيات التاريخية، فرنسية و جزائرية: "ألكسيس دي توكفيل"، "دي مونتنياك"، "الأمير عبد القادر"، دكتور "بوديشون"، "ألبير كامو"، "كاتب ياسين" و "شارل ديغول". و في كل مرة؛ عدنا إلى المقاطع المرجعية، وجدنا أنّ الساردة قد تقيدت تماما بما قالته هذه الشخصيات أثناء الفترة الاستعمارية. فهي اكتفت بدمج هذه المقاطع في روايتها، و ذلك راجع إلى الطابع التاريخي التي تتسم به.

كما قامت الساردة بذكر التواريخ الأساسية، إذ بدأت روايتها بذكر تاريخ دخول فرنسا إلى الأراضي الجزائرية، ثم تحدثت عن أبرز الأحداث التي عرفها التاريخ الجزائري إبان الثورة التحريرية؛ نذكر منها أحداث 8 ماي 1945، أول نوفمبر و غيرها. فمنه نتوصل إلى أن الساردة قد قامت بدمج أحداث نصها التخيلي في الزمن التاريخي؛ و ذلك للحصول على الزمن الروائي، حيث أعادت تسطير التاريخ وفق ترتيب زمني معين (من

بداية الاستعمار الفرنسي حتى الحصول على الاستقلال). فالساردة قد احترمت العناصر التي تعطي طابع تاريخي لروايتها، فقد تطرقت في روايتها إلى الأحداث التاريخية حسب ترتيب زمني معين (من بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى غاية الحصول على الاستقلال)، و استعملت أيضا المقاطع المرجعية لإعطاء مصداقية أكثر لروايتها، و أدخلت على نصها الطابع الخيالي، من خلال الشخصيتين "مدام لافرانس" و الطفل. فقد عكست آلام و معاناة الجزائريين من جهة، و أظهرت وحشية الاستعمار الفرنسي من جهة أخرى.

نستخلص أيضا من خلال دراستنا إلى أن شخصية "الطفل"، الذي يمثل الشعب الجزائري، قد تحمل جميع أنواع التعذيب، الإهانة، الفقر، الجهل، المعاناة بشتى أشكالها. فقد كان محروما من أدنى حقوقه، يُعذب دائما بطريقة أو بأخرى، متحملا في صمت جميع أشكال الاضطهاد. و كل هذا كان في سبيل الحصول على الاستقلال، إذ أنه لم يخضع و لا يوما لقواعد الاستعمار، فقد ناضل و جاهد إلى أن تحقق في الأخير الحلم و شاهد وطنه مستقلا بعد 132 سنة من المعاناة الكبيرة.

تحدثت الساردة أيضا عن شخصية "مدام لافرانس" التي تمثل سياسة الاستعمار المطبقة في الجزائر. فبدأت بالإشارة إلى أن مهمتها في الجزائر هي تطويرها و إقامة حضارة فيها و لكن بطريقة وحشية من خلال قتل شعبها، حرق أراضيها و إبادة كل من يقف عقبة في تحقيق مشروعها الحضاري. كانت تحاول دائما تبرير وجودها في الجزائر للتلاميذ العرب بقولها أنها تريد أن تحولهم إلى شعب متحضر و متطور. و كأن ما تطلبه "مدام لافرانس " هو بالشيء الجديد على ما تعود عليه الجزائريون. فأظهرت لنا الساردة صورة وحشية و بربرية و همجية السياسة الفرنسية الاستعمارية المطبقة في حق الجزائريين.

و قد لاحظنا أن الساردة قد ذكرت العديد من الصور؛ منها صورة الفرنسيين الجاهلين والمقدمين على احتلال بلد لا يعرفون عنه شيئا، مدى رقي و حضارة الجزائر قبل

الاحتلال الفرنسي، تخلف الجزائريين و كأنهم حيوانات بالنسبة للفرنسيين. كعدم المساواة و الظلم و التمييز الذي عاشه الشعب الجزائري، صور مجازر أحداث 8 ماي 1945، و أخيرا كيف أن العرب هم أشخاص قذرون ، و بعيدون كل البعد عن قواعد النظافة بالنسبة للفرنسيين، رغم أن الحقيقة هي جد مختلفة. فأظهرت الساردة أن العرب كانت لديهم صورة سلبية؛ قذرون، لا يحترموا قواعد النظافة. و تضيف قائلة أنه حتى و لو شاهد الفرنسيون كيف أن العرب هم نظيفون ؛ فلن يعترفوا بذلك. فبالنسبة لهم العرب هم قذرون و سيبقون كذلك رغم الحقيقة المختلفة.

و من الغايات الإيديولوجية من كتابة التاريخ نذكر أن الساردة أرادت اللجوء إلى الماضي من أجل قيمة تعليمية محددة تكشف لنا التاريخ بطريقة قصصية شائقة تخلق لدينا وعيا سياسيا و اجتماعيا بماضينا. أيضا؛ بعث مجد الماضي و إحياؤه مجددا في الأذهان، وهذا منطلق يبدأ من الماضي ليرفد الحاضر. البحث عن الذات الضائعة واكتشاف معنى الاستمرار والانتماء إلى شيء قد ضاع إلى الأبد ومسح الغبار عن الصورة القديمة بإعادة بناء الماضي كلها معان نستذكرها عندما يكون الحديث عن الرواية التاريخية. فكثيرة هي مسوغات الاندفاع نحو الماضي.

كما أدانت الساردة الاستعمار و وحشيته و بربريته؛ من خلال ذكر مجازره، قوانينه المطبقة على الجزائريين و التي تفيد بحصر حريتهم، و وضحت أيضا أنّ الشعب الجزائري كانت له نفس الرؤية. فالساردة تتقاسم إذن مع الشعب الجزائري نفس الإيديولوجية.

لذا ف"رواية حجر دم ورق أو رماد" هي ليست برواية بالمعنى الحقيقي لأنها تتميز بغياب العنصر الخيالي، فهي عبارة عن سرد أحداث تاريخية قد حدثت في الواقع من خلال تشخيص البلد المستعمِر (فرنسا) و الشعب الجزائري (الطفل) الذي يعيش 132 سنة.

هذه الرواية نالت إعجاب الكثيرين، فذكرت الكاتبة الفرنسية "كريستين روسو" Christine" Rousseau" في حوارها التي أجرته مع جريدة العالم " Le Monde" حول الرواية:

« Sur une tragédie que Maissa Bey transcende magnifiquement dans une prose lumineuse, tendue, sensible, ironique, déchirante. Un souffle poétique qui claque au vent de l'Histoire. D'une vérité offerte en partage. »[196]

أي بمعنى أن من خلال التراجيديا التي تنقلها لنا "مايسة باي" نجد نص أدبي لامع، حساس، ساخر، ممزوج بالحقائق التاريخية. أما الكاتب Pierre Daum "بيير دوم " فقط أضاف لجريدة « Libération »في وصفه للرواية:

« Tremblant d'une rage masquée par les yeux d'un enfant algérien, ce texte offre un panorama magistral de ce que fut la réalité des cent trente –deux années de colonisation en Algérie. »[197].

أي أن هذا النص الأدبي ممزوج بغضب شديد مختف وراء قناع شخصية الطفل، ينقل لنا حقيقة الأحداث التاريخية وقعت لمدة 132 سنة من جراء الاستعمار الفرنسي للجزائر.

فقد قمنا في عملنا هذا بدراسة العوامل التي جعلت من رواية "مايسة ماي" رواية تاريخية، و سنحاول في بحوثنا القادمة تعميم نفس الدراسة على ثلاثة روايات تاريخية جزائرية، وذلك بهدف مقارنة أساليب كل كاتب.

[196] "ترسم لنا مايسة باي في التراجيديا، نص أدبي لامع، متوتر، حساس، ساخر و قوي. فهو حس فني ينصهر في التاريخ." ترجمة شخصية.

[197] "ممزوج بغضب معكوس في أعين الطفل الجزائري، هذا النص يقدم لنا نموذجا حيا عن حقيقة 132سنة من الاحتلال في الجزائر." ترجمة شخصية.

ملحق

السيرة الذاتية لـ"مايسة باي"

اسمها الحقيقي سامية بن عامر، ولدت في سنة **1950** في قصر البخاري بولاية المدية، في جنوب مدينة الجزائر على بعد 150كم. عاشت طفولتها في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر. هي أم لأربعة أطفال، روايتها الأولى : « Au commencement était la mer ».

هي روائية عاشت في طفولتها فترة الاستعمار، والدها كان معلما و مناضلا في FLN، وقتل في حرب تحرير الجزائر، درست في ثانوية بالجزائر Fromentin، ثم بالجامعة. مايسة باي هي حاليا أستاذة بجامعة سيدي بلعباس في غرب الجزائر.

درّست الفرنسية في ثانوية "النجاح " مطولا و عملت أيضا كمستشارة البيداغوجيا في الطور الثانوي . متأثرة بالثقافة الفرنسية، هي تكتب بهذه اللغة(الفرنسية)، و في هذا الإطار هي تقول:

« Il est bien plus réaliste de (la) considérer comme un acquis un bien précieux, et peut être même un « butin de guerre » ainsi que la définissait Kateb Yacine ». [198]

هي تقول أنه عليها أن تعتبرها كشيء مكتسب وجد ثمين وهي أيضا غنيمة حرب، فهكذا كانت تعرّفها مايسة باي. اليوم مايسة باي مقيمة في سيدي بلعباس أين تشرف على جمعية ثقافية كلمات وكتابات« Paroles et écritures » .

مايسة باي هو اسمها الملقبة به و في حوار معين، قامت بشرح أسباب اختيارها لهذا اللقب:

« C’est ma mère qui a pensé à ce prénom qu’elle avait déjà voulu me donner à la naissance […] et l’une de nos grand- mère maternelle portait le nom de Bey […]. C’est donc par des femmes que j’ai trouvé ma nouvelle identité, ce qui me permet aujourd’hui de dire, de raconter, de donner à voir sans être immédiatement reconnue. Je n’ai pas eu vraiment le choix.

J’ai commencé à être publiée au moment où l’on voulait faire taire toutes les voix qui s’élevaient pour dire non à la régression, pour dénoncer les dérives

[198] -tiré de « Cinq romans algériens » Marsa, France,1998.

"إنه أكثر واقعية أن نعتبر اللغة الفرنسية كمكسب جد ثمين، و ربما أيضا "كغنيمة حرب" مثلما يعرفها كاتب ياسين." ترجمة شخصية.

dramatiques auxquelles nous assistons quotidiennement et que nous étions censés subir en silence […] dans le meilleur des cas. Prendre un pseudonyme pour pouvoir écrire était un moyen de se protéger, dérisoire, je le sais mais qui me donnait un pouvoir, illusoire, certes, j'en suis consciente, mais renforcé par la volonté, de ne pas me cantonner dans la posture de témoin passif d'une histoire écrite dans le sang et les larmes. Et puis, cela n'est pas négligeable, c'est ma mère qui me l'a choisi, cela pourrait être aussi, d'un autre point de vue, une seconde naissance… »[199]

أي بمعنى أن أمها هي من فكرت في هذا الاسم الذي كانت تريد أن تسميها به عند ولادتها(مايسة) و جدتها كانت تحمل لقب باي، فقد وجدت الأنا الجديد عن طريق نساء عاشت معهن وبذلك تستطيع قول و كتابة أشياء دون أن تُعرف من هي بالضبط. فهي تقول أنها لم تملك الخيار، فقد بدأت بالكتابة في الوقت الذي كانت تُسكت جميع الأصوات المنتشرة ضد الظلم المعيش مرارا و تكرارا. فالسرد باسم مستعار كان بهدف أن تحمي نفسها، وكان هذا الاسم يعطيها القوة، فلم تكن تريد أن تصبح شاهدة على الظلم وغير قادرة على مواجهته.

في التسعينات بدأت مايسة باي بنشر مؤلفاتها، فهي لم تستطع الاكتفاء بأن تكون شاهدة صامتة على ما يحدث، فضميرها لم يكن ليسمح بهذا.

« Parce qu'elle ne peut plus se contenter d'être le témoin passif d'une histoire, dont le déroulement violent interpelle toutes les consciences »[200]

---

[199] Entretien publié dans la revue « Algérie Littérature, action »N°05,ed. Marsa, Paris, Novembre 1996.

"إنها أمي التي فكرت في هذا الاسم عند ولادتي […] و أحد جداتي كانت تحمل لقب "باي". إذن بفضل النساء فقد وجدت لنفسي الأنا الجديد الذي يمكنني اليوم من قول و حكي و إعطاء وجهات النظر من دون أن أُعرف مباشرة. فلم يكن لدي بالفعل الاختيار. بداياتي في النشر كانت في الوقت الذي كانت تُسكت فيه جميع الأصوات التي كانت ترتفع و كان يجب تحمل كل هذا في صمت […] في أفضل الحالات. فالاسم المستعار كان من أجل أن أحمي نفسي؛ فقد كان يعطيني القوة و يقوي إرادتي حتى لا أقيم مقام شاهد لا مبالي لما كُتِب بالدم و الدموع. و أيضا يجب عدم إهمال أن أمي هي من اخترته لي، فمن وجهة نظر أخرى؛ هو ولادة ثانية…" ترجمة شخصية.

[200]Entretien publié dans la revue « Algérie Littérature, action »N°05,ed. Marsa, Paris, Novembre 1996.

"لأنها لا تستطيع أن تكتفي و أن تكون شاهدة صامتة لما يحدث بالطريقة الأكثر عنفا؛ التي تحرك كل من لديه ضمير." ترجمة شخصية.

في وقت قصير استطاعت أن تصدر عدة مؤلفات(حصلت على عدة جوائز منها: « le prix des libraires algériens » في سنة 2005) المكونة من روايات، قصص ومسرحيات (مُثّلت في فرنسا)، و يذكر أيضا أنها ساهمت في كتابة « ouvrages collectifs » فحتما هذا ما يجعل Christiane Chaulet-Achour "كريستيان عشور" تقول:

« Aujourd'hui, incontestablement et depuis la fin des années 90, Maissa Bey devient une référence incontournable de la littérature algérienne des femmes. »[201]

أي بمعنى أن اليوم وبدون اي نقاش و منذ نهاية التسعينات، مايسة باي أصبحت رمز الأدب الجزائري النسوي وتعد مرجعا.

كتابة مايسة باي:

في لقاء أدبي بالمركز الثقافي الفرنسي(CCF) بالجزائر، المنظم من طرف Jacques Perrin ، مايسة باي كانت ضيفة الشرف وذلك لتتحدث عن آخر أعمالها. خُصص وقت كبير من المقابلة للحديث عن موهبة الكتابة.

وتقول أنها حتى تبدأ في الكتابة، مايسة باي تقرأ العديد من الكتب ومن هذا فهي متأثرة بالعديد من الكتاب وبالنسبة لها:« Chaque texte est un intertexte » . أي "كل نص هو تناص لنص آخر". لم يكن هدف مايسة باي أن تصبح كاتبة وكانت تعتقد أنها لن تنجح لعلمها بصعوبة الكتابة لأسباب عدة منها احترام قيم التربية والتعليم، ماضيها الأليم وكثرة قراءاتها للكتب. في سنة 2005، أصبحت مايسة باي كاتبة، بدايتها كانت جد قوية

[201]-Algérie littéraire, côté femmes : vingt cinq ans de recherches (communication au colloque international : le « genre »-Approches théoriques et recherches en Méditerranée-unité de recherche femme et Méditerranée de l'Université de Tunis-Faculté des sciences humines et sociales, Carthage, Beit –al-Hikma, 15-17 février 2007.

"اليوم و بدون أي نقاش، منذ نهاية التسعينات، مايسة باي أصبحت تعد مرجعا هاما في الأدب الجزائري النسوي."

ترجمة شخصية.

و كان لها صدى كبير من كتاب لآخر و حتى الآن. فمايسة باي تكتب حتى لا تشعر أنها وحيدة، هي فقط طريقة لقتل الصمت الذي يحوم في المجتمع الجزائري خلال العشرية السوداء، إذ كان على الجميع البقاء في المنازل ابتدءا من الساعة الخامسة مساءا تحت قانون حضر التجول، فكانت تكتب مايسة باي حتى تملأ الفراغ عن طريق استعمال كلمات تترجم و تنقل أحاسيسها الداخلية.

« Une écriture est naturelle, je ne sais pas c'est inconsciemment ».[202]

"كتاباتي هي طبيعية، تلقائية". الكتابة بالنسبة لمايسة باي هي أمر جد صعب و مؤلم هي التعبير بالكلمات عن الآلام التي تحس بها في هذا البلد المظلم، لأنها كاتبة تحاول وضع نفسها مكان الشخصية حتى تتمكن من وصف حالتها:

« Je suis une faiseuse d'histoire […] je suis quelqu'un qui raconte à partir du réel des histoires […]. La littérature m'a sauvé de beaucoup de choses. »[203].

بمعنى أنها صانعة قصص، تحكي من خلال الواقع قصص وترى أن الأدب قد أنقذها من عدة أشياء.

في مقال بجريدة الوطن، طرح الصحافي "لبداعي بن عودة" السؤال التالي على مايسة باي:

« Peut-on alors parler de volonté de s'inscrire dans le temps par le biais de l'écriture ? ».

" هل نستطيع القول أن الكتابة هي نتيجة إرادة أن يكون إسمك مسجلا عبر الزمن؟"

أجابت مايسة أنها من أول المحفزات هي الرغبة عن الامتنان، إحياء لذاكرة الحياة. الكتابة، اختراع هي طريقة لتفادي النسيان، و فكرة أننا عشنا في هذه الحياة بدون أن نترك أي أثر. و لكن بالنسبة لي كانت موجودة أيضا كتابات الآخرين. النصوص التي

---

[202] -Maissa Bey, *rencontre littéraire en centre cultuel français*. Alger le 18/01/2011.
"الكتابة هي طبيعية، لا أدري إنها لا إرادية." ترجمة شخصية.

[203] -Idem. (OP Cite).
"أنا صانعة قصص […] فأنا أروي من خلال حقيقة معينة […] الأدب قد أنقضني من أشياء كثيرة." ترجمة شخصية.

كنت أدرسها بشراهة، بحب؛ فقد كنت أمتلكها بطريقة أو بأخرى. كانت تساعدني على العيش و بفضلها قمت بالكتابة في العديد من مراحل حياتي. فكانت كتابات الآخرين هي غذائي، اختياراتي، هواياتي، كانت تساعدني على الفهم و على الإنتاج.

و إذ كنت اليوم منتبهة للآخرين و لنفسي فذلك بفضل الكتب التي أسست معرفتي بالآخرين و التي جعلتني ما أنا عليه الآن. لقد لزمني وقت طويل حتى أجبر نفسي على الكتابة، على استخراج الكلمات التي تثور في نفسي، ففي الوقت الذي كان فيه الصمت إلزاما، الكلمات كانت الشيء الوحيد الذي امتلكه كسلاح. فحقيقة، مايسة لا تمتلك إلا الكلمات لتبدع أو بالأحرى لتنقل مأساة النساء اللاتي تعيش تحت قمع قوانين مجتمعنا الجزائري.

بعض مؤلفاتها مترجمة إلى لغات عديدة، و قد كتبت أيضا العديد من المسرحيات وتحصلت على الكثير من الجوائز و الألقاب الأدبية.

مؤلفاتها:

- Puisque mon cœur est mort, l'Aube/ Barzakh, 2010.
- L'une et l'autre, l'Aube/Barzakh, 2009.
- Pierre, sang, papier ou cendre ; l'Aube/ Barzakh 2008.
- Bleu, blanc, vert, l'Aube/ Barzakh, 2007.
- Sahara mon amour, l'Aube, 2006
- Surtout ne te retourne pas, l'Aube, Barzakh, 2005
- Sous le jasmin la nuit, l'Aube, 2004.
- Entendez-vous dans les montagnes…, l'Aube/ Barzakh, Alger 2002.
- Cette fille-là, l'Aube, 2001.
- Au commencement était la mer, Marsa, 1996.

الخامس من شهر جويلية عام 1962، هو يوم جد هام، حيث أن الجزائر تحصلت على حريتها في ذلك اليوم، الذي كان الخميس، يوما جد حار. كانت احتفالات لم ولن تعرف البلاد مثلها في التاريخ. الكاتبة مايسة باي تروي لنا في كتاب « Ce jour-là » كيف ترى هذا اليوم، كيف عاشته، ماذا يمثل لها في حياتها، أحاسيسها، خيالها...

فالتاريخ الشخصي للروائية هو موجود في الرواية؛ إذ أنها كانت فتاة صغيرة في السنوات الأخيرة من الاستعمار؛ و شهدت أيضا استقلال الجزائر. فهي تقول:

« Je me souviens de ce jour débordant de lumière et de ciel bleu. Avions-nous dormi la nuit d'avant ? Je ne sais pas, je ne sais plus. Je me souviens de cette exquise sensation de légèreté, au réveil. Ce n'est que bien plus tard que j'ai compris pourquoi : l'étau de la peur venait de se desserrer. A tout jamais. Je me souviens de la fébrilité, de l'inhabituelle anarchie qui régnait à la maison matin-là.»[204].

الكاتبة تقول أنها تتذكر ذاك اليوم الساطع، المليء بالأنوار، ذو السماء الزرقاء.هل نمنا ليلتها؟ أنا لا أتذكر. أتذكر ذلك الإحساس اللذيذ، الخفيف الذي راودني حالما استيقظت صباحا. الإحساس الناتج عن ذهاب و انصهار الخوف في بهجتنا تلك. أتذكر أيضا الفوضى العارمة التي كانت تعم في منزلنا على غير عادتنا.

تقول الكاتبة أنها لبست في ذلك اليوم تنوره خضراء اللون(أخضر يقارب لون علمنا الوطني) مع قميص أبيض ووشاح ملفوف حول العنق أحمر اللون. كانت فتاة ذات اثنا عشر عاما. كانوا مجموعة من الأطفال(بنين وبنات) ينشدون طوال اليوم أناشيد مختلفة التي لم تنس إلى الآن كلماتها: قسما، من جبالنا، لتحيا الجزائر..

تقول الكاتبة أيضا، أنها تتذكر انقباضات قلبها حين رؤيتها لجنود الولاية الرابعة، أول المناضلين الذين رأتهم، أبطال مخفيين، غير معروفين، يرتدون زيهم العسكري، أولئك الرجال الذين كانوا يظهرون في الليل و يجتمعون في مزرعة جدها،مرتدين (القشابيات) مثل أعمامها.

« Dans mon esprit, ils ne pouvaient que ressembler à ces hommes qui surgissaient de l'ombre à la nuit tombée et se réunissaient dans la ferme de

---

[204] - Ce jour- là, ouvrage collectif sous la direction de Nourredine SAADI. Chihab Edition 2012 .p25.

"أنا أتذكر من هذا اليوم أنه كان ساطع بالأنوار، ذو سماء زرقاء. هل نمنا في الليلة التي سبقته؟ لا أدري. أتذكر ذلك الإحساس الغريب الخفيف الذي راودني صباحا و الذي لم أفهم معناه إلّا فيما بعد: فحاجز الخوف قد إختفى و أخيرا للأبد. أتذكر الفوضى غير العادية التي كانت تعم منزلنا ذلك الصباح." ترجمة شخصية.

mon grand-père, silhouettes enturbannées et vêtue de *Kachabiyate* comme mes oncles, des paysans. »[205]

تقول أيضا أنها تتذكر آمالها في عثورها بين الوجوه التي تراها على عمها "ضيف الله" الذي هرب من السجن و لم نتلق منذ ذلك الحين أي خبر عنه، سواء أكان حيا يرزق أو ميتا.

« Je me souviens de la stridence des youyous des femmes que nous voulions accompagner […]. Je me souviens des larmes silencieuses de ma mère, tous les soirs qui ont précédé ce jour, de son regard qui d'attardait sur la photo de mon père ».[206]

هي تتذكر زغاريد النساء اللاتي كانت تريد مرافقتهن و تتذكر أيضا دموع أمها الصامتة حين رؤيتها لصورة أبيها كل مساء قبل ذلك اليوم، كانت نظرات تتماطل، عميقة وطويلة على صورة والدها.

تتذكر الكاتبة أيضا الأبواب المفتوحة، جميع الأبواب المفتوحة لكل المنازل في جميع الأحياء، و النساء اللاتي كانت على أبوابهن تعطي قطعة خبز ساخن، حبة بيض مغلي فاكهة أو كأس ماء. تتذكر مايسة باي الحشود الكبيرة المتواجدة على مرفأ سيدي فرج، ذلك المكان الهام و الرمزي الذي (من خلاله دخلت فرنسا للجزائر) ، رائحة البحر المختلطة بالشمس و رياح الحرية.

كانت الكاتبة تتمنى في قرارة نفسها أن تكون جميع الأيام الموالية، شبيهة لذلك اليوم التاريخي، يوم ترفع فيه البطولات و التضحيات، يوم الفخر و المجد لجميع شهدائنا الأبرار.

---

[205] نفسه .p26 "في نفسي كانوا يشبهون هؤلاء الرجال الذين كانوا يظهرون كخيال بعد قدوم الليل و يجتمعون في مزرعة جدي. فقد كانت خيالات ترتدي قشابيات مثل أعمامي الفلاحين." ترجمة شخصية.

[206] نفسه .p27"أتذكر أصوات زغاريد النساء التي أردنا الذهاب معهن [...]. أتذكر دموع أمي الصامتة، كل مساء، حتى قبل ذلك اليوم؛ فنظراتها كانت دائما تتماطل على صورة والدي." ترجمة شخصية.

قائمة المصادر و المراجع

المصادر:

Maissa bey, *pierre sang papier ou cendre*, éditions Barzakh, Blida Algérie, 2008.

المراجع باللغة العربية:

-ابراهيم عباس، الرواية الغاربية (تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي)، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2003.

-البصير محمد، الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة 1970- 1982.

-ألتوسير لويس ، الأجهزة الإيديولوجية للدولة، الأيديولوجيا -دفاتر فلسفية- مرجع سابق.

-الجزائري مسعود مجاهد، تاريخ الجزائر، منشورات مطابع دار الأيتام الإسلامية الصناعية القدس.

-الشمالي نضال ، الرواية و التاريخ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن 2006.

-العروي عبد الله ، مفهوم الإديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط5، بيروت، 1993

-امبيرتو إيكو: حاشية على اسم الوردة آليات الكتابة، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد. www.said-Yaktin.com/eco.htm

-بن نعمان أحمد ، التعريب بين المبدأ و التطبيق، الجزائر، ش.و.ن.ت، ط.1، 1981.

- حلواني لمليح فادية، الرواية و الأيديولوجيا، الآمال للطباعة و النشر، دمشق، ط1، 1988.

-حمود ماجدة ، مقاربات في الأدب المقارن، اتحاد كتاب العرب -دمشق- سوريا، 2000.

-حنون عبد المجيد ، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1984

- دراج فيصل، دلالات العلاقة الروائية، دار كنعان للدراسات و النشر، دمشق، ط1،1993.

-شندي اميمة، مصر في قصص نجيب محفوظ(ر.ج) جامعة عين شمس 1991.

-روزنتال. م. و يودين. ي، الموسوعة الفلسفية، الإيديولوجيا، دفاتر فلسفية، ترجمة م. سبيلا و ع. بن عبد العالي، دار توبقال. ط1 المغرب 1999.

- طرابيشي جورج ، الماركسية و الإيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت، 1971.

-عرابية هاشم، عن التاريخ و الرواية، مجلة البيان، جامعة آل البيت، م 2، ع 2 ربيع 1999.

-عزام محمد ، وعي العالم الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق/1990.

-عمار بلحسن، الأدب و الإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

- غورفيتش جورج ، المعاني المتعددة للإيديولوجيا في الماركسية، الإيديولوجيا -دفاتر فلسفية، ترجمة: محمد سبيلا و عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال. ط، المغرب 1999.

- فتحي إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية - صفاقس - تونس،1986

-لبيب الطاهر، صورة الآخر العربي ناظرا و منظورا 'ليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1999.

-لوكاتش جورج، الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد كاظم، دار الطليعة، بيروت .1978

نقلا عن محمد نجيب لفتة:ولتر سكوت و الرواية التاريخية، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، ع 40، آذار 1997.

-http://www.aawsat.com ألبير كامو يكتب عن الجزائر وصاحب «في انتظار غودو» في أيامه الأخيرة.

المراجع باللغة الأجنبية:

-Algérie littéraire, côté femmes : vingt cinq ans de recherches (communication au colloque international : le « genre »-Approches théoriques et recherches en Méditerranée-unité de recherche femme et Méditerranée de l'Université de Tunis-Faculté des sciences humines et sociales, Carthage, Beit –al-Hikma, 15-17 février 2007.

-Barthes. R, Kayser. W. Booth. W, Hamon. Ph, « poétique du récit », éditions du Seuil, Paris 1997.

-Benot Yves « Mai 1945 : les "événements de Sétif" analysés par Albert Camus » [archive], 28 mars 2005.

-Chevrel Yves « La literature comperée », Paris, P.U.F, que sais-je, 1989.
MOURA Jean-Marc, *L'imagologie littéraire: essai de mise au point historique et critique*. In: revue de littérature comparée, N°3, Juillet-Septembre 1992, Paris, Didier Erudition, 1992.

-« Cinq romans algériens » Marsa, France, 1998.
-De Certau. M. « l'écriture de l'histoire », Paris, Gallimard, 1975.
- Dejeux Jean, DIB. M, « littérature algérienne contemporaine », PUF, colle que sais-je? N° 1604, Paris, 1975.

-De Montagnac Lucien, « *Lettres d'un soldat, neuf années de campagnes en Afrique »*, éd. Plon, 1885, Lettre du 15 mars 1843.

-De Tocqueville Alexis, « Travail sur l'Algérie » (1841), dans *Alexis de Tocqueville, De la colonie en Algérie, ,* éd. Complexe, 1988.

-Houra. J.M, « Dictionnaire International des termes littéraire par article: "Imagologie" », limoges, 1999.

-Kateb Kamel, *Européens, « indigènes » et juifs en Algérie (1830-1962)*, Paris, Ined/PUF, 2001

-Lahjounri Abdeldjalil, « l'image du Maroc dans la littérature française », S.N.E.D, Alger 1973.

- Macherey. P, « pour une théorie à la production littéraire », Maspiro, Paris, 1966.

-Memmi Albert, « Portrait du colonisé », Payot, Paris éd.1973.
-Molino. G, « histoire, roman, formes intermédiaires », in *l'Histoire comme genre littéraire*, Mesure, N°1.Paris, José Corti 1989.

-Molino .G, qu'est-ce que le roman historique ? *In la revue d'Histoire Littéraire de la France*, 1975.N°2-3.

-Pageaux Daniel Henri, «De l'imagerie culturelle à l'imaginaire», in Pierre Brunel, Yves Chevrel,éds.– Précis de littérature comparée.– Paris : P.U.F., 1989

-Pareydt. L, Ricœur Paul. « L'avenir de la mémoire », in Etudes, février 1993.

-Ricoeur. P, « la mémoire, l'histoire, l'oubli ». Paris, seuil 2000.

-Ricœur .P, *Histoire et vérité*, édition Seuil, 1955.
-Ruth Amossy Herschberg, Pirrot Anne, « Stéréotype et clichés », Paris.1999.

- SAADI Nourredine « Ce jour- là », ouvrage collectif sous la direction. Chihab Edition 2012.

-VEYNE. P, « Comment on écrit l'histoire », Seuil, Paris, 1971.
-Teun Van Dijk, « Politique, Idéologie et Discours », *Semen* [En ligne], 21 | 2006, mis en ligne le 28 avril 2007, consulté le 22 novembre 2013. URL : http://semen.revues.org/1970.

-YAHYAOUI. F, « roman et société coloniale, dans l'Algérie de l'entre-deux-guerres », Ed ENAG-GAM, Alger-Bruxelles.
- Dejeux Jean, Lacheref. M, « *L'avenir de la culture algérienne dans les temps modernes* » N° 209 Octobre 1963.
-www.adva.org/uploaded/A-kibush2012-site.pdf.

-www.histoire.presse.fr/actualite/infos/albert-camus-misere-kabylie-in-alger-republicain-1939-22-11-2010-16441.

الفهرس:

مقدمة.

الفصل الأول: الرواية التاريخية.....6

المبحث الأول: التطور التاريخي في المغرب العربي و الجزائر.....7

المبحث الثاني: مفهوم الرواية التاريخية.....13

المبحث الثالث: تحديد الشخصية الروائية عند "فيليب هامون".....20

المبحث الرابع: الشخوص التاريخية.....23

المبحث الخامس: الرواية التاريخية و كتابة التاريخ.....41

المبحث السادس: الموازنة بين الروائي و التاريخي.....48

الفصل الثاني : مباحث الصورة.....57

المبحث الأول : دراسة الصورة الأدبية.....58

المبحث الثاني: مفهوم علم الصورة.....60

المبحث الثالث: الصورة و التمثيلات في الرواية.....68

المبحث الرابع: رمزية الطفل.....75

المبحث الخامس: رمزية "مدام لافرانس".....96

الفصل الثالث: مباحث الإيديولوجيا.....108

المبحث الأول: مفهوم الإيديولوجيا.....109

المبحث الثاني: علاقة الأدب بالإيديولوجيا.....113

المبحث الثالث : علاقة الرواية بالإيديولوجيا.....116

المبحث الرابع: تحليل الرواية إيديولوجيا.....119

خاتمة.....131

قائمة المصادر و المراجع 138

ملحق السيرة الذاتية لـ "مايسة باي".....147

المراجع باللغة العربية.....155

المراجع باللغة الفرنسية.....157

الفهرس..... 159